
سامي سعد
رواية
السراديب
دار ميريت
مدونة ابو عبدو
أبو عبدو البغل

السراديب

الشيخ يقول: لا

السراديب

الشيخ يقول: لا

رواية

سامى سعد

الطبعة الأولى ٢٠١٥

دار ميريت

٦ (ب) شارع قصر النيل، القاهرة

تليفون / فاكس: ٢٥٧٩٧٧١٠ (٢٠٢)

موبايل / ٠١١٤٢١٣٨٩٢٥

www.darmerit.com

info@darmerit.com

المدير العام: محمد هاشم

الغلاف: عمرو حميد

رقم الإيداع: ٢٠١٥/٢٥٥٩

الترقيم الدولى: 3-737-351-977-978

سامى سعد

السراديب

الشيخ يقول: لا

رواية

دار ميريت

القاهرة ٢٠١٥

إهداء

حجر ضد النسيان

إلى:

أبي: سيرة جبل.

سامي الصغير: يا كل الضائع مني، والموجود بعينيكَ.

ربما حملت المتاع

صببت الماء، أوقدت النار

لا أعرف ماذا فعلت

لكنني كنت رفيقاً في الحملة.

سامي سعد

الشايب

-١-

هؤلاء هم نسله يا وليدي: قالت الخالة تمام لولد الشيخ سند. كل هؤلاء يا خالة؟ تساءل الصبي. بل وأكثر من هؤلاء، لكن خالتك تنسى الكثير.

كانت الخالة تتحدث عن نسل اسماعيل الشايب، الجد القريب لساكنى المواصى، وجدها هى أيضاً من ناحية ما. بجوار البحر، يلتوى الساحل إلى الداخل قليلاً، متداخلاً فى رمل أصفر طرى، فى هذه الإنحناءة بين البحر والرمل تنبسط الأرض قليلاً، يسمون هذا الجزء من الأرض **الماصية**، أول ما يفعلون أن يحفروا فى ركن من الأرض حفرة عميقة، ربما بطول برميل حديدى، يحفرون حتى ينبثق الماء، ثم يسارعون بدفع البرميل الحديدى إلى أعماق الحفرة ليحجز ما يجود به الثرى العميق من ماء عذب، يسمون هذه الحفرة **تميلة**، يملأون منها جرارهم وأوانيهم، يعملون منها الشاى، ويستحمون، ويسقون دوابهم، ولأن الماء قريب من سطح الأرض فى هذه المواصى يندفعون لزراعة الجزء المستوى من الأرض بأنواع مختلفة من الثمار والخضروات، وتقوم التمائل بالرى لهذه الزراعات: بطيخ، شمام، طماطم، فاقّوس، سبانخ، زعتر، بعض أشجار ليمون، وتين. فيما بعد، سيقومون بعمل أسيجة من الجريد حول هذه الزراعات الصغيرة، والتى تمثل كل الحياة لأولاد اسماعيل الشايب. مرة سيدعونها **المواصي**، ومرة يقولون عنها **السراديب**، شرق السراديب مباشرة، على تلال الرمال الصفراء الناعمة، تمتد العرائش فى صفوف طويلة، دوائر متداخلة، لكل أسرة من العائلة عريش فى الشريط الطويل، كل رجل يعرف مكان موقعه، تتوالى السنوات، يرحل من يرحل، ويأتى من يأتى، والمكان لا يتغير قط، حقول من النخيل المتراصة فى صفوف هندسية، كل يعرف نخلته، كل دابة من دوابهم تعرف طريق صعودها وهبوطها ومنامها أيضاً، فيما ترسو

قريباً من الماء سفن خشبية كبيرة محمّلة بالغزل وأدوات الصيد، للصيد أوان، وللزراعة مواقيت، وللرعى مواسم، يقسّمون الزمن على مواسم الرزق، لا كتب هناك ولا تواريخ، يحفظون الأزمنة بالحدس، يعرفون الشتاء بهطول أمطار معينة **كمطر الصليبة مثلاً**، والربيع بظهور أعشاب يعرفونها، فيقولون: ها هى الدنيا أربعت، فى النهار ينطلق الجميع إلى مآربهم، من يزرع، من يصطاد، من يقطع أخشاباً من الأثل، ومنهم من يذهب للمدينة للتزود بالدقيق، والأغراض الصغيرة. يتفرقون فى سكك الحياة التى لا تنتهى، لكن عند هبوط الليل تبدأ النيران فى الإشتعال، كل عريشة بنارها، حتى يصير الشريط كأنه موكب شموع لحفل الليل الغريب، لا أحد يغيب فى الليل، بعد صلاة العشاء يتفقدون بعضهم البعض، يعرفون ما دار خلال النهار لكل فرد منهم، يرتبون للصباح القادم شئونه، يتسامرون، الرجال مع الرجال، والنساء مع النساء، تبدأ الكلاب فى النباح، تخفت النيران التى أنضجت العشاء، وبثت الدفء فى الأوصال، ينهض الرجال للنوم، وتقوم النساء لتدثر الأطفال داخل العرائش، تطمئن على عجين الصباح، تغلق زرائب الماشية، يقلبون الأوانى الفارغة على الأرض، حتى لا ينام فيها الشيطان لعنه الله، ثم لا تسمع غير: الله يمسيكم بالخير، الصباح رباح. ايه يا دنيا، الله يرحمك يا جد اسماعيل: تقول الخالة تمام.

-٢-

اسماعيل هو الصحيح فقط من الاسم، أما **الشايب** فهو من الألقاب التى حازها الجد خلال عمره المديد.

حين يبدأ موسم البلح كانت القبائل تهبط من البادية التى تسكن أعماق الصحراء إلى ساحل البحر طمعاً فى توفير غذاء رخيص لمواشيها، كان الجد اسماعيل يقطن فى أعلى رابية المالح، منتصف الشريط الطويل من المواصى، محاطاً بالأهل والأولاد والجيران، كل هؤلاء يعرفونه عن قرب، يعرفون الاسم، والشكل، لا حاجة بهم إلى السؤال أو التعرف، لكن أهل البادية لا يعرفون، أطلقوا عليه وصف الشايب، ربما للون لحيته البيضاء، ربما تكريماً للسن الذى لا يعرف على وجه الدقة مبتداه، وربما لأسباب احتفظوا بها لأنفسهم كعادة أهل البادية.

نحيلاً كان وصموتاً، خفيفاً كعصفور، ينحنى بوجهه إلى الأرض إذا أراد النهوض، دائماً تعلو رأسه عمامته البيضاء المستديرة، ولا ترى تلك الشيبه من الشعر إلا حين يخلع العمامة عند الوضوء، ويمسح رأسه بيده المملوءة بالماء من ابريق الفخّار الأسمر الرابض دوماً إلى جواره، ثم يعاود وضع العمامة فى هدوء وصمت وقور، وجهه تشوبه حمرة هادئة، قالوا: لقد رأى مناماً فى شبابه أنه يلبى فى الكعبة المشرفة، عند بدء موسم الحج جهّز زوادة ضئيلة من الزاد والماء، صنع له مداساً من جلد الغزال، ثم مر على ديوان العائلة فى البلدة الفقيرة قائلاً لهم: إن شاء الله أنا نويت، أنا أسامح كل فرد فيكم، فهل تسامحونى؟ حاول الكبار إفهامه أن الحج يتم عن طريق البواخر، وأن الدرب طويل وصعب، لم يرغب فى الإستماع إلى النصائح، وفى النهاية سامحوه فانطلق.

غاب عاماً وشهرين ثم عاد من حيث ذهب على قدميه، سار إلى الأردن ثم إلى تبوك فالمدينة الشريفة، جاور بالمدينة النبوية، رأى ما رأى، وعاد محللاً بالوقار والسكينة، صار الحاج اسماعيل، وحين قال ولد الشيخ سند للخالة تمام: لماذا يعيش وحده يا خالة؟ أين الحرمه؟ قالت: راحت من زمان، قبل رحلة الحجاز الأولى، كانوا يقولون أنه فى شبابه كان عصياً وشديد المراس، لا يهاب شيئاً أو أحداً، وحين عيره أخوته لعدم رغبته فى الزواج مرة أخرى بعد وفاة المرحومة أم الأولاد، وأنه ربما فقد فحولته، كما قالوا أو أشاروا أمامه، قام وسط ديوان العائلة، رفع جلبابه عن وسطه، أنزل سرواله إلى الأرض وسط ذهول الجميع، أمسك بقضيبه شاهراً إياه فى وجوههم: هذا الزب جعل منكم عائلة يا ولاد الكلب. بصق على الأرض فى غضب، ارتدى سرواله وخرج دون أن يلتفت، قال قبل أن يغادر باب الديوان: الله يخزيك يا شيطان، لكن الناس دائماً تخرج أسوأ ما فيك. بعد ذلك، وحتى النهاية، لم يجرؤ أحد على الحديث معه فى تلك الناحية.

ـ٣ـ

قبل أن تغيب شمس **راحة** زوجة اسماعيل الشايب، كانت قد أنجبت له عشرة أولاد وبنتان. لازمه الأولاد قليلاً فى حياة فقيرة، ثم انتشروا حوله فى شريط المواصى فى حلقة ممتدة من العرائش المجاورة تتسع شيئاً فشيئاً. كان حريصاً على أن يزوج كل ولد منهم من فرع من أفرع العائلة أو العائلات المجاورة توسيعاً لبذرة الإسم فى عائلات ذات أملاك من الأراضى أو حقول النخيل. شروطه كانت بسيطة: أن يكون الخال المنتظر لأحفاده جيداً: الخال ينفع ويضر يا ولدي، ثم أن تكون الفتاة ذات عظام خشنة، كأنه يتخير دابة لا عروس، لكن الحياة أيضاً كانت تواصل فرض شروطها، إذ أن ما تقوم به النساء هناك كان يحتاج إلى عظام من حديد.

تبدأ الحكاية بأن يكلم الشايب أهل العروس، يتفق معهم، يعود ويخبر الولد بالأمر، يبدأون فى تجهيز عريش جديد، أبعد قليلاً عن العرائش المتلاصقة، عادة فى يوم الخميس ستذهب بنات العائلة إلى منزل العروس، حاملين قفة كبيرة من الجريد، بها ما تيسر من الأقمشة وأعواد الكحل الأسمر وقطع صابون نابلسى، يقطعون الشوارع على أقدامهم بصحبة الأولاد الصغار والشباب مرددين:

قفتين وعديلة للسمرا الكحيلة.

سيعودون بالعروس فى مساء اليوم التالى، وتصير الأزقة فرحاً وسامراً للجميع. سيذبح أهل العريس وليمة للعشاء، وتمتلئ القدور بالقمح المهروس والماء، ما يسمونه **جريشة**، يقف الرجال فى نصف دائرة، ويتقدم واحد منهم بعصاة، يميل بها يميناً ويساراً، يردد ويرددون خلفه:

الأسمر غاب وجاب كحيلة، صاحب صيت اللى رباها، كان زمان على بالى فرح الحبايب.

ابتدأ الأمر بحميد أكبر الأولاد، تلاه جبريل الذى لقب بالشيخ، ثم حمود والحمدان وسلامه الغزّال، وانتهى الحبل بمحمد الصغير. ألقاب أيسر من شربة ماء، ومع توالى الأيام ينسى الاسم الحقيقى، ولا يبقى غير اللقب الدامغ. واحدة من البنات هى الفاطم، أم الشيخ سند، وهى التى تزوجت مرتين، مرة باختيار الشايب حين كانت صغيرة، والمرة الأخرى بإرادتها الحرة، ورغم أنف الرجال، لأنها ببساطة شديدة كانت أكثر رجولة من الجميع، ودوناً عن أولادها السبعة، كان سند هو الذى انتمى لأخواله فى كل الحالات حباً وكرامةً، فمنحوه ما يستحق من مهابة ودلال. فيما البنت الثانية كانت الشلبية التي زوجها الشايب لواحد من الرجال على أطراف المدينة القريبة كان قد أحسن ضيافته أثناء واحدة من سفراته القصيرة، كان اسمه الحسانى.

كل شئ فى المواصى له عمل معلوم، النجوم فى السماء، القمر بأشكاله وأطواره، والتى تحدد غالباً مواقيت صيد أنواع من الأسماك، الريح التى يسمونها باسم جهة هبوبها: **ريح مصرية** .. الخ.

كل شيء يحمل اسمه اللصيق، الدواب قبل الناس، السفن قبل الأولاد، النخلات قبل الزوجات، لا شيء مجهول الهوية أبداً. كانوا يولدون ويعيشون ويموتون في بساطة شروق الشمس وغروبها.

-٤-

فى واحدة من زيارات **الشيخ المرزوق** لشريط المواصى، كانوا يتبركون بالرجال الصالحين، ويعدونه واحداً من أولياء الله، جلس الشيخ بينهم ثم حدق فى البحر طويلاً، تساءلوا: ماذا ترى يا شيخ؟ قال: الله يجبر.

تسرب الخوف إلى قلوب لا تعرف للخوف معنى، قال أحدهم: ربما يريد البحر **زوارة (كان بعضهم يقدم ذبائح للبحر حتى لا يغضب فيغرق سفنهم أو يبتلع واحداً منهم)** هم الذين لا يتركون فرض صلاة، وفي ليلة الخميس من كل أسبوع ترتج الكثبان بحلقة الذكر التى يندر أن يتخلف عنها أحد منهم، وتطول حتى فجر الجمعه، سكارى يمزقون حناجرهم:

عُربان وادي النقا، نصبوا الحلل على الريح، غليانهم من تُقا، فورانهم تسبيح.

لكن كل ذلك لن يمنع أن يأخذ كل ما يستحقه، حتى البحر، ويقول المرزوق رداً على الرجل: لا يا ولدى، البحر لا يريد منكم شيئاً، لكن الدنيا حالها عجيب، والله لا أخبركم إلا بما رأيت، كأن هذا الشريط يا أخوانى ساحة حرب، أى والله ساحة حرب، عسكر وموتى، خلق من كل جنس ولون، نساء عرايا، رجال أغراب كأنهم جاءوا من وراء هذا البحر، لكن الصلاة: فرض الله، لن يكف فى هذا الشريط إلى يوم القيامة، ثم ابتسم لهم ليخفف عنهم أثر رؤاه الغريبة: أين العشاء يا جبريل؟ وحين يضعون **المناسف والبواطى** على الأرض يلتف عليها الرجال فى صمت، تمتد الأيدى الغليظة إلى رزقها المقسوم، لا أحد يعطيك نصيباً، ولا أحد يمنعك، ستدور أباريق الماء على الغرباء والضيوف فقط، بينما على أهل الشريط أن يتدبروا أمورهم، سيفركون أصابعهم بالرمل، وربما يطحنون عوداً من نبات **العادر** العطرى بين أكفهم، يتناولون الشاى والقهوة المرة، يدخنون تبغهم الجبلى، ويمتلأون شعوراً بأن نعائم الحياة كلها باتت بين أيديهم، دائمى التحديق فى

البحر، ويرشقون المارة بنظراتهم الفاحصة، فى ليلة الشيخ المرزوق مر عليهم قريب لهم من ناحية الشمال، يعرفونه كواحد من ظواهرهم العجيبة، انه **العُز**، يحبون الجلوس إليه، والاستماع إلى حكاياته الغريبة، هو الذى ورث عن أبيه كل ما حازه الرجل من أراضى وزرع نخيل، حتى أخيه الوحيد آثر عدم الزواج فمات تاركاً له أن يضم ميراثه إليه بمفرده، تزوج العز سبع مرات، ولم ينجب كما يقول: حتى نملة. جوال فارغ لا يفارق ظهره، طاقية صوف خضراء، وإلتواء ظاهر فى أصابع يده اليمنى حيث انفجر لغم فيها قبل أن يقذف به إلى الماء ليصطاد سرب سمك كثيف، يقرأ آيات القرآن بطريقة دعت شيخ المسجد أن يأمره بالقراءة فى السر، وهو لا يفتأ عن القراءة:

قول الله واحد، لا ولد ولا اتولد، ولا هو زى أحد.

ناداه المرزوق تلك الليلة، وأمسك بيده وأجلسه بجواره قائلاً له: ريح راسك يا رجل، يا عز يا ولدى، الله لا يريد لك التعب، ويجيب العز: لكنى لست متعباً يا شيخ، أتعب حين أكف عن العمل، كل ما هناك أنى قليل البخت! سأتزوج ثانية يا شيخ، لعل وعسى، وليت الشيخ سند يا مولانا يعطينى واحدة من بناته. تنفجر حلقة الجالسين بالضحك، وتأخذ العز الدهشة بضحكاتهم: أريد واحدة تقرأ وتكتب مستندات الأرض والزروع، تلك المستندات التى يعدها كنزه الأثير، يدسها فى جوال من البلاستيك الغليظ، ويدفنها فى قاع الرمل حيث لا يعرف موقعها سواه، وهو الذى يملك مئات من قطع الأراضى وحقول النخيل المثمر، لم يقم ببناء غرفة واحدة تأويه من حر الصيف أو تصونه من برد الشتاء، ينام حيث ينتهى به المسير، يتوسد مداسه، يتلحف بالبالطو الثقيل، ويتوكل على الحى الذى لا ينام، وحين يضيق الجالسون بحواره الذى لا ينتهى أبداً يقول عبارته الذائعة: طول بالك يا خال، خذ وأعطى، الناس ما عاد عندها صبر. سيقول له الشيخ سند: لكنك لا تعطى شيئاً يا عز، لا تفعل غير الحروب مع الجيران على حدود الأرض

الفراغ، حتى من زوجناك اياهن لم يطقن الحياة معك، أنت تمسك على نفسك يا خال والخير عندك كثير، وينهض واجماً، ولا يروق له ما يسمع مردداً: يريدوننى كالمجنون أبدد مالى وحالى على من يسوى ومن لا يسوى، ليش؟ النسوان لا تفكر إلا فى التفاهة والأكل، البطن يا خال لا تسأل صاحبها، ما الذى جرى للناس؟ سيقول جبريل الشيخ معلقاً على حكمة العز: ما دام الطحين موجوداً فلا شئ يدعو للقلق. سينشأ الألم عند الشعور بالحاجة، لكنهم لا يعرفون الحوائج، هكذا صارت الحياة محتملة، بل وطيبة.
فى مساء تلك الليلة هبت ريح باردة، استداروا بأنوفهم ناحية البحر: ها يا ولاد، هبة سردين أم هبة وحش؟ سينظرون إلى صاحب الشأن فى هذا الأمر **عوشى** هو ابن الخال حسن والخالة تمام، ليس أكبر أشقاؤه، ولا هو أصغرهم، لكنه قرة عين تمام وبنات المواصى، تاج شبابهم، دبوس الفضة فى عصا الفقر الغليظة، هو الذى أفرطت الطبيعة فى هداياها له، كان طويلاً كنخلة، عريضاً كجدار سفينة، يتساوى زند يده مع ساق شجرة سرو، وجه مستدير لامع، طافحاً بالحيوية والحياة، شعر أسود طويل، وضحكة طفل لا تغادر فمه الكبير، يحب البحر والرطب، ولا يحب أن يقول **لا**.

هبة سردين أم هبة وحش؟ عوشى يصيخ السمع، يمد عنقه فى اتجاه الماء، وحين يهب واقفاً مندفعاً الى الساحل، خالعاً ما يرتدى من ملابس وهو يجرى، سيسمع آل الرفاعى خبطة قدميه على الأرض، على بعد فرسخين، سينسكب الرجال وراءه من العوالى، يدفعون المركب المحمل بالغزل للماء، يعتلونها نصف عرايا، ستلم النساء ما ترك الرجال خلفهم على الشاطئ من ملابس وأغراض، ويعودون للعرائش على أمل رزق قادم، وعودة الرجال سالمين، ستقول حسنة مازحة: ها قد ذهب الرجال الليلة، وتنام الأفران الصغيرة بلا نار.

الفاطم

-١-

ابنة اسماعيل الشايب الصغرى، أم البنين فيما بعد، المرأة التى امتلأت حتى لم تشعر بالحاجة إلى ستر وجهها عن الرجال، أم سند رغم أنه ليس أكبر أبناءها، وهو الوحيد منهم أيضاً الذى كان ينادى ويلقب باسم أمه، ورغم ما حفلت به حياتها من أحداث وغرائب غير أن الذى عكر صفو علاقتها بأبيها حدثان جسيمان:

الأول أنها أدخلت إلى صلب العائلة رجل غريب عنها، وعن المدينة بأسرها، متزوجه اياه رغم أنف الجميع.

الثانى حين سنت فى المدينة قانوناً لم يكن سارياً، ولا معترفاً به، حين انتزعت من أبيها حصتها فى أرض العائلة، ورفضت ما كان سارياً: **رضوة البنات**.

فى زمن مجهول الهوية تاريخاً واسماً، ولا يمكن الركون إلى التخمين بشأن تحديده بدقة، قرر الشايب فى يوم من تلك الأيام أن يزوج الفاطم، جاءه واحد من الرجال القريبين من العائلة بالبلدة الصغيرة طالباً الزواج من البنت، كان رجلاً طيباً، وهى قد بلغت مبالغ الزواج، قال له الأهل: زوجها واسترح، البنت عنيدة وقوية. وافق على النصحية، وهى لم تهتم بالأمر كثيراً، قالت فيما بعد: كنت صغيرة، ولم يكن على هواى، لكنه رجل كباقى الرجال. حين صارت فى بيت الزوج، والذى حفر اسمه فى كتاب النسيان لمجرد أنه اقترن بالفاطم، المرأة الطامحة بكل قواها لحياة أكبر، هناك عافت الحياة من جذورها، لكنها ابتلعت الأمر على مضض، ذات مساء عاد الزوج من رحلة صيد فى عرض البحر منهكاً ومشوّشاً، رائحة السردين والملح تطفح من جسده وثيابه، هيأت له العشاء، وأخرجت له ملابس نظيفة ثم قالت: قم واستحم، نظر اليها ببلادة ودهشة قائلاً: لماذا؟ دلف إلى فراشه الفقير منادياً عليها أن تلحق

به، وقفت عند حافة الباب، وأجابت بقسوة: شوف يا رجل، حد الله بيني وبينك من هذه الليلة، ثم أبرت بقسمها فى تالى الأيام. اشتكى الرجل إلى أبيها واخوانها، قالوا له: لا حول لنا ولا قوة، دبّر حالك يا رجل، وهي خيرته بين الطلاق أو الرضا بالأمر الواقع، وهو أرتضى الاقامة فى ظل مهابة الفاطم، ونسى تلك الأشياء التى لا تقدم ولا تؤخر، وعندما يدركها سأم الحال الذى يتكرر كل يوم تحمل جرتها وتهبط إلى أسفل جسر الوادى. هناك **الشواديف:** الجسر الذي يفصل المدينة عن البلدة الصغيرة التى تقيم فيها مع باقى أسرتها.

فى الشواديف يزرعون الخضروات الصغيرة على أبار قريب رشح ماءها من سطح الأرض، يأتى أهل المدينة للجسر للتنزه، وشراء الخضروات الطازجة، تملأ نساء البلدة جرارهن من الآبار، ويحملن بعض الخضروات ويعدن إلى منازلهن قبل الغروب.

فى واحد من تلك النهارات، هبطت الفاطم بجرتها إلى شواديف أقربائها، قصدت البئر الملاصق للجسر، فيما كان أعلى الجسر هجّاناً يمتطى بعيراً أشقراً، أدوات الهجان مزركشة بعناية ونظام، رفعت عينيها إلى الراكب الذى صار يحجب عنها الضوء من فوق ظهر بعيره، كان أسمراً، خفيف اللحية، باسماً فى حياء، يضع ساقاً فوق الأخرى، ويمدهما على ناحية من عنق البعير، يغطى رأسه بعمامة بيضاء تنسدل أطرافها على كتفيه، قالت فى نفسها: الله يخزيك يا شيطان. توقف الهجان قبالتها من هناك، وتساءل: إن شاء الله، الزين من فين؟ أدركت على الفور غرابة لهجته وحداثة وجوده فى الديار، قالت: يا رجل، الزين لأصحابه، الله يسهل دربك. قفز الهجان إلى الأرض وصار أمامها ممسكاً بخطام بعيره وعصاه الحمراء الرفيعة، قال: والله لا أقصد سوءاً. سألت الفاطم: مصرى أنت؟ أجاب نعم، من أى عائلة يا مستورة؟ عادت إلى صرامتها ووضوحها: ماذا تريد من عائلتى؟ قال: لا شئ غير الخير

إن شاء الله. ردت بحسم: عد إذن إلى أهلك. قال مستطرداً: أريد أن يكون لى أهل فى هذه البلدة، أمتزوجة أنت؟ لاذت بالصمت، حملت جرتها وعادت، وهو ترك لها مسافة تمضى فيها بسلام ثم اقتفى خطوها دون أن تلحظه، عرف أنها متزوجة، وجم قليلاً، أرسل جيراناً يتنسم الأمور، عرف أنها عازمة على الطلاق، انتظر حتى ظفرت بخلاصها، ردت على الزوج صداقه فى ديوان أبيها، ثم قالت: يا دار ما دخلك شر. بعد انقضاء فترة الشرع، أخبرت أبيها أن يفتح ديوانه للهجان وأسرته، اعترض الأب والأخوة والعائلة، قالوا: لا نعرفه، غريب عنا، وقالت هى: أنا أعرف ما يكفى، وأتحمل ما يكون. لم يجدوا بداً من الموافقة، نزحت مع زوجها الجديد إلى المدينة الكبيرة، عرفت أنهم حديثى عهد بالحياة فى الصحراء، يتحدثون باللهجة المصرية الرقيقة، يرتدون أحذية طويلة، يدخنون سجائر جاهزة، ويغسلون أيديهم بعد الطعام!!

من صلب هذا الهجان الوافد حديثاً على الصحراء، أنجبت الفاطم أولادها السبعة وابنتاها، وحين صاروا يذهبون ويأتون فى شريط المواصى على أثر الأم وفى حضن الأخوال، أطلق أهل المواصى على الأرض التى تقطنها الفاطم وأسرتها اسم **الأسطية** نسبة إلى الهجان وأسرته الصغيرة، والذين كانوا يعملون فى مد أسلاك الهاتف إلى المدينة فكان منهم العامل والباقى اسطوات، سيأكل الزمن الرجال والأعمار كعادته، لكن الأسماء لا تزول، ستبقى الأسطية حجر يتعذر على أمعاء الزمان هضمه أو تجاوزه.

-٢-

ذات صباح دافئ، ذهبت الفاطم إلى أبيها فى البلدة الصغيرة، جلست وشربت الشاى وتسامرت مع الشايب قليلاً ثم عرجت مباشرة إلى هدفها المنشود من الزيارة، طالبة من أبيها بغتة ما لم تطلبه امرأة من قبل، لا فى العائلة، ولا فى أهل الجوار قاطبة: أيرضيك ما يفعله اخوتى معى؟ نكس بالعود الرفيع فى راكية الجمر أمامه، أجاب: صباح ما هو زين يا فطم، لا تنسى أنهم الرجال، ثم أخبريني، ماذا تريدين منهم؟ قالت: أريد أن يتركوا لى مارس الأرض الشمالية هذا الموسم، أنصب فيه شباكى لصيد السمان. قال: اذهبي يا فطم، وحصتك من الصيد ستصلك حتى الدار، وقبل أن تهم بالوقوف زحفت مقتربة من الشيخ حتى دست ركبتيها فى حجره، قالت بصوت خفيف: اسمع يا بركة، بحق الله عليك لا تردنى خائبة، لا أريد نصيباً من الصيد، أريد نصيبى فى الأرض، حق الله يا شيخ، لا أكثر ولا أقل، يا أبتى أولادي سبعة، وأنا أولى بحقى. عفّر الشايب رملاً فى وجهها، وقال: اذهبي اذهبي. ذهبت منتصبة وصامتة، سارت منحدرة فى اتجاه الشاطئ، حين لاقاها جبريل الشيخ: أخوها الكبير، قالت: يا جبريل، سأنصب شباكى هذا العام، أسوق الله عليكم، لا تجبرونى على الشطط.

لن تنفع الوسائط فى اقناع الفاطم بالتراجع عن طلبها الغريب، لن تجدى الحلول البديلة باعطائها ما تستحق نقداً، نخلتين زيادة عن حصتها، كانت قد حسمت أمرها، وكان ذلك أمراً لا يمكن قبوله أو الاعتراف به: حصة من الأرض! لماذا؟ ولمن تذهب؟ للبنات وأزواجهن الغرباء! لقد جرى العرف أن يأخذ الرجال كل الميراث، وأن يتم إرضاء البنات بما يسمى **رضوة**، قد يكون جنيهاً كاملاً، عدد من رؤوس الأغنام، عدد من النخلات، وربما تسامح البنت فى أخر الأمر طلباً فى ثواب الآخرة، ولم يكن ذلك رغبة منهم فى ظلم أحد،

ولا شهوة فى العدوان على حق أحد، فقط ذلك ما عرفوه ووجدوه تراثاً فساروا عليه، لم تكن لدى الشايب علوم أخرى غير ما تلقاه عن آبائه.

هذه البنت الصارمة تزوجت ثانياً برغبتها، سكنت المدينة مع زوجها وأبناءها، أدخلت أولادها المدارس حتى أن ولدها الكبير صار جاويشاً بسلاح الحدود، تعمل كالرجال، لا تخجل من كبير ولا صغير، تذهب لدار المأمور وتوّلد زوجته، تمشى أينما شاءت سافرة الوجه، ونبوتها فى يدها.

هل جاء الوقت لتجلس إلى أبيها وتطلب نصيباً من الأرض؟ أه يا زمن العجايب!

قال اخوانها للشايب: لماذا تحزن؟ لن تنال سوى ما نعطيها اياه، دعها تركب رأسها. قال الشايب: أعطوها ما تريد، واربحوا صمتها. أجابوه: ستخرب بيوتنا يا شيخ، وتفتح علينا باباً لن يغلقه أحد، كل امرأة وكل بنت ستصير الفاطم. قال الأب: أنتم أحرار، ولا شأن لى بما سوف يأتى. قالوا : استرح يا شيخ، ولا عليك منها.

-٣-

فى بداية خريف هذا العام، طلبت الفاطم من أولادها أن يعدوا الركائز اللازمة، والغزل الخاص بصيد السمان، وذات صباح حملوا متاعهم على جمل أشقر، وذهبوا الى المارس الشمالى، الذى طلبت الفاطم من أبيها أن يتركه لها هذا الموسم. هى تعرف ما يخص والدها هناك، وإن ترددت قليلاً فى معرفة حدود الجيران فهناك **الدكر القديم**، والذى قام بزراعته الشلالي كحد فاصل بين أملاكه وما يخص جيرانه، وأولهم الشايب.

سريعاً قام الأولاد بحفر وغرس الركائز الطويلة، ثم شدوا عليها شباك الغزل ورفعوه عن ملامسة الأرض كالعادة، حتى لا يكون شركاً لسرطان البحر والهوام، وحين فرغوا من العمل، عادوا لعريش صغير نصبوه لاقامتهم قريباً من خط الشباك المنصوبة.

فى المساء عاد الجميع إلى البلدة، وتركت الفاطم هناك ولدها الحمود، ومعه ما يلزم من زاد يكفيه، وأقفاص خاصة من الجريد ليضع فيها ما يتم صيده من طيور. قبل أن تغادر أوصت ولدها: إذا جاءك أخوالك بشر، لا تبادلهم، أخبرنى وحسب. مكث الحمود هناك يومان كاملان، ولم يصادف سوءاً، امتلأت أقفاصه بالطيور، حملها على ظهر حمار، وعاد بها إلى المدينة، عليه أن يعود سريعاً قبل الفجر، يشد الغزل إلى الأرض، ويكمن خلف ساتر صغير قرب الشباك، وعند كل اهتزاز للشباك يقفز سريعاً يخلص الصيد من الغزل، يدسه فى عبه، ويعود ليضعه في القفص، ويعاود الكمون وانتظار الاهتزاز التالى، يستمر هذا الحال حتى شروق الشمس، يبدأ فى رفع الغزل والاهتمام بباقى شئونه.

حين عاد الحمود من المدينة قبل الفجر، لم يجد شيئاً على حاله، الركائز مهدمة على الأرض، الشباك ملمومة فوق بعضها على الرمال، عريشته

الصغيرة متناثر جريدها هنا وهناك. لم يهبط من فوق ظهر الحمار، استوعب ما رأى، واستدار بحماره إلى الشاطئ عائداً إلى البلدة، وفى طريق عودته التقى بعضاً من أخواله يرقّعون غزلاً بحرياً لهم، فيما آخرون منهم يواصلون أعمالهم فى السراديب، نادى عليه خاله الحمدان، ذهب إليه حتى صار بمحاذاته، قال له خاله: يا ولد، صبّح على أمك، خلّها تقصر الشر، وأنت أيضاً لا ترجع إلى هناك. لم يجب بكلمة ثم واصل السير، وحين وصل إلى الدار كان أخوته وأمه على مائدة طعام، قالت الفاطم لولدها: اجلس وتناول طعامك أولاً، ثم قل ما تريد، اجلس يا حمود. سأله واحد من اخوانه: سبع ولا ضبع؟ بعد تناول الطعام أخبر الفاطم بما جرى. أجابت بحسم: **الطلب اللين يضيع الحق البين**، ونحن لا نشحذ حسنة، يا ولدى الحق يحتاج إلى عين قوية، حزين أنت يا حمود؟ أخوالك يا وليدى كروش ما هم عروش، ثم وحياة شيبة أمك لن ترى إلا خيراً، قول يا رب يا وليدى.

-٤-

فى صباح اليوم التالى، أعدت الفاطم للأمر عدته، صرّت كيس البيض البلدى، رصّت الخضار الطازج فى مرجونة من الخوص الأخضر، ارتدت الثوب الأسود النظيف المعطر برائحة البخور الجاوى، ووضعت الشال الأسود الثقيل على كتفها الأيمن، ثم قالت: يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم، وانطلقت إلى وسط البلدة، حيث تتوسط حديقة كبيرة منتصف الميدان الرئيسى بالمدينة، مسوّرة من جميع الجهات بسور من الطوب النى المدهون بجير أبيض باهت، تتوسط السور من ناحية الشارع الكبير بوابة حديدية ضخمة، يقف دائماً على أبوابها اثنان من الحرس، هذا هو بيت الحاكم الانجليزى للمدينة، حين شاهدها الحرس عرفوها، وبادلوها التحية، كانت كثيرة التردد على زوجة الحاكم، حيث كانت تأتى إليها بأعشاب طبية، تسامرها بحكايات وجدت فيها الغريبة طرافة وحكمة، ترافقها أحياناً إلى **سوق الخميس**، حيث ترى الغريبة ما تشتهى من أثواب بدوية مطرزة، سجاجيد من الوبر، براقع من عملات قديمة ونادرة، أدوات حياة لا يمكن لها أن تراها إلا هنا. بعد قليل ولجت إلى بيت الحاكم، لا أحد يعرف كيف يجرى الحوار هناك بينهما، بأى لغة تتحدثان؟ وبأى طريقة شرحت للسيدة حكايتها؟ لكنها حين أنهت زيارتها عائدة إلى دارها، كانت السكينة تملأ ملامح وجهها العريض، حتى أن العكارة التى طالت الوجه الوضئ قد زالت تماماً. تلقاها أولادها بالدار متسائلين عما جرى، كان ولدها البكر الجاويش بسلاح الحدود يدخن سيجارة، قذفها بعيداً كطفل ظبط متلبساً بجريمة، هو الذي كان قد ورث عن أخواله عافية مفرطة، إضافة إلى أنه واحد من القلائل الذين يقرأون ويكتبون، سألها: خيراً يا أمى؟ أجابته: الله يا ولدى لا يفعل إلا الخير، لكن ابن آدم دائماً أسود راس، وعلى العموم البادى أظلم، وحين هم بالانصراف نادت

عليه قائلة: اسمع يا صالح، أنت تعمل بالحكومة، لا شأن لك فيما بينى وبين اخوتى، أتفهم؟ وحين عاد من عمله فى المساء، أخبر والدته أن الحاكم الانجليزى قد حدد يوم الاثنين صباحاً ميعاداً للجنة التى ستذهب إلى المواصى لفض النزاع هناك على الطبيعة، وقال لها: إن الحاكم بنفسه سيرأس اللجنة يا أم ، قالت: زين يا وليدى، سنذهب إلى هناك، وسيرى الشايب أن الحق لا يموت، حتى وإن كان لحرمة، والركائز التى هدموها أخوالك سينصبوها بأنفسهم، نعم هى عمدان من الأثل، لا تساوى شيئاً، لكن من يفرط اليوم فى القليل عليه أن يستعد غداً ليخلع ثوبه.

فى اليوم التالى، امتلأت دار الفاطم بوجهاء المدينة، عواقلها وشيوخها، ألحوا عليها أن تقبل صلحاً لا تشارك فيه الحكومة، قالوا لها: الشايب تعهد أن يعطيك ما تشائين، قالت: لا شئ أكثر من حقى، والحق يا جماعة الخير ما يحتاج إلى وسايط، ثم أن الشايب فى الأولى والأخرة أبوى، ويهمنى رضاه، لكن رضى الله أولى، إن شاء الله خير.

ـ ٥ ـ

فجر الأثنين الموعود، التفتت لأولادها قائلة: **الاتنين فاله زين.** أعدوا عدتهم للذهاب، حملوا ما يلزمهم من طحين وماء وبعض حبات البندورة، براد الشاى الكبير، بكرج القهوة، كما حمل كل منهم عصاة، عيب على الرجل أن يمضى عارياً، خرجوا من الشارع الضيق متجهين إلى جسر الوادى، سيعبرون كوبرى القطار، ومنه إلى الساحل من ناحية ألاى الحدود.

كانت تسير بجلبابها الأسود الطويل، وحتى عندما لامست قدماها ماء البحر لم تفكر فى جذبه لأعلى، وتركت البحر يضرب أصابع أقدامها وحواف ثوبها السفلية، صامتة وراسخة، لم تنطق بكلمة حتى اقتربوا من منحنى الماصية، توقفت برهة فتوقفوا، نظرت إليهم قائلة: شوفوا، الشر ما هو غنيمة، ولا تأتوا لأنفسكم بمعرة، الصيت أطول من العمر، لا تنسوا هم أخوانى وأخوالكم، وفى صعودها البطئ إلى تلة الماصية شاهدوا الكثير من أفراد عائلة الشايب حتى بدت الماصية وكأنها مقبلة على عرس من كثرة الرجال والنساء والأطفال.

التزموا الصمت حتى وصلوا إلى باحة الذكر القديم، أناخوا رحلهم، أوقدوا النار، التفوا حول السيدة التى حولت المواصى فجأة إلى حفل كبير. قريباً منهم كان اخوانها ملتفين حول عريش الشايب، جبريل الشيخ، الحمدانى وأولاده، سلامه الشلالى، محمد القس وزوجته الجازية، فيما انضم اليهم أيضاً اخوانه وبنى عمومته من آل الرفاعى، وعدداً من مشايخ البادية ظن الشايب فى حولهم وقوتهم على الجدل والحوار، هدد الحمدانى بصوت مرتفع: والله بعد أن تغور اللجنة لندفنها فى هذا السرداب.

كان الجميع فى انتظار القادمين من المدينة، خمن عدد من آل الشايب: قد يأتى المأمور، وفى ذلك الصباح أمر الحاكم بتجهيز حصانه الأحمر للمرور

على الساحل، فيما أصرت المدام زوجته على مرافقته، فأمر بإعداد عربة الجيب الصغيرة لنقلها إلى هناك، رافقه عدد من الحراس، كتبة المحافظة، والتشريفة التى لا تفارقه.

قصيراً كان وصارماً، غليونه الانجليزى المعقوف لا يفارق شفتيه النحيلتان، يغطى رأسه بطاقية كبيرة الحواف، يتوسط مقدمها شريط أحمر لامع، إنه المحافظ الانجليزى للمدينة، والذى كان كثيراً ما يزهو قائلاً: أنا ملك سيناء.

سيمضى الملك على طريق الساحل ليرى على الطبيعة: على ماذا يختلف هؤلاء الناس؟ يرى حقيقة رغبة المدام فى إنصاف سيدة تراها على حق بين، لن ينسى أيضاً أن يقول: لو كان هذا الشريط من البحر والنخيل فى بلادى لصنعنا منه جنة لا مثيل لها على الأرض.

-٦-

سحب السيد فيرانى لجام حصان الحاكم، وصعد به منحنى الماصية، بعد قليل من الوقت سيقف جميع من كانوا هناك على أطراف أصابعهم، سيمضى الفيرانى بالحصان وراكبه حتى يصل للخيمة التى نصبوها له بين شرق الذكر والساحل، سيضع يمينه فى الركاب ويستند إلى ذراع واحد من مرافقيه، يهبط على الرمل الأصفر البكر، تهتز عصاته القصيرة تحت إبطه الأيمن، يشد الطاقية إلى الأمام درءاً للشمس عن عينيه الضيقتين، يمسح المكان الآهل بالناس والدواب والعرائش بنظرة واسعة، وقبل أن يدلف إلى خيمته التى يطل بابها على البحر من ناحية الشمال، وعلى الأرض المرتفعة محل النزاع بين الشايب وابنته من ناحية الغرب، جلس على كرسى من الخيرزان خلف طاولة خشبية، نزع الطاقية ووضعها على الطاولة، أشعل غليونه الداكن فعبقت فى الخيمة رائحة التبغ الثمين، فيما أطبق الصمت على الجميع، انتظاراً لبادرة الحاكم ذو الوجه الأحمر، أمام باب الخيمة توافد الجميع، جلسوا فى صفوف ودوائر يتقدمهم الشايب بثوبه الأبيض وعمامته الحمراء، يتحلق حوله أولاده، أبناء عمومته، عواقل البادية الذين جاءوا للدعم والمساندة، فيما هبطت الفاطم وأولادها من يسار الذكر، وشغلت الفراغ المقابل للخيمة من الناحية الأخرى، على باب الخيمة من الخارج وقف الفيرانى منادياً: أين كبير العائلة؟ عليه أن يأتى ليدخل على الحاكم. همهم الجميع واتجهت الأنظار إلى حيث كان يبرك الشايب متوتراً، لملم أطراف عباءته السوداء، عدّل من عمامته الحمراء الملفوفة بشال أبيض كبير، ركز بيديه على الأرض ونهض ممسكاً بعصاه الحمراء المعقوفة من أعلى، كان يقول عنها: عود رمان أصيل. سار بين الرجال الجالسين على الرمل، تمتم بآيات من الذكر، ردد بعض الأدعية المأثورة، كان يستمد المدد الآلهى فى نصرته أمام الحاكم الأحمر، وفى مواجهة واحدة من

البنات شقت عصا الطاعة والعرف السائد، نظر حوله للأخوان والأصدقاء، قال الفيرانى: تقدم يا شيخ. واصل الخطوات المنهكة حتى وقف فى مواجهة الباب الخارجى للخيمة، لم يعد بينه وبين الحاكم سوى الطاولة المنصوبة، عن يمينه وقف الفيرانى صامتاً. بادر الشيخ بالقاء السلام، أومأ الحاكم برأسه الأجرد: good تبدو رجلاً طيباً، لماذا يصنع الناس الطيبون مشكلات؟ تكلم يا شيخ. قال الشايب مجيباً: والله يا باشا ما فى مشكلة، هادى أرضنا نزرع فيها ونصيد فيها، ما فى مشكلة والله يا باشا، ثم هاهى العائلة كلها والجيران اسأل، اسأل يا باشا، وحين صمت الشايب أشار الحاكم بيده: أووه يا شيخ، إذن لماذا تغضب سيدة؟ وتلجأ للشكوى لحاكم سينا؟ أووه هذا ليس معقولاً يا شيخ!

ران الصمت على الحضور، كانت زوجة الحاكم قد طافت بالمكان والبحر حتى وصلت إلى باب الخيمة، أفسحوا لها الدرب المكتظ بالأجساد، كانت طويلة ومكشوفة الشعر، تعلّق كاميرا تصوير على صدرها اليابس. قالت الحريم حين شاهدوها: المسكينة تبدو كعصاة، أه لا يعرفون الأكل الذى يقيم الصلب. دخلت إلى الخيمة، وجلست فى ركن فيها كان مفروشاً بأكلمة حمراء ووسائد عالية. أحضروا للحاكم فناجين القهوة، وهو عاد للحوار مع اسماعيل الشايب، سأله: كم ولداً لك يا شيخ؟ أجاب الشايب: عشرة يا باشا وبنتان. ابتسم الحاكم: أووه good، ما الذى أغضب السيدة إذن يا شيخ؟ قال الشايب: هى لا تسكن معنا يا باشا، وتريد أن تزاحم أخوتها الرجال فى الأرض، احنا يا باشا ما عندنا حريم تزاحم الرجال. أشار الحاكم إليه بيده فتوقف عن الكلام: ماذا تقول؟ هناك شئ لا أفهمه، أهى ابنتك أم لا؟ قال الشايب: بنتى يا باشا، واصل الحاكم: تزاحم من إذن؟ أليسوا أخوة سواسية فى كل شئ؟ علق الشايب منكسراً: يا باشا، البنت غير الولد، الولد

يتعب ويشقى، يزرع ويحصد، يحمى الأرض والعرض، لكن البنت ما لها غير دارها، وحقها يصل اليها يا باشا. فجأة علا صوت الحاكم:stop ما هذا؟ قلت أن فى الأمر شئ لا أفهمه، رجل كبير يقف أمامى، يريد أن يخترع قوانيناً للحياة، أين السيدة يا فيرانى؟ سريعاً جاءت الفاطم، شقت طريقها كرمح حتى وقفت إلى جوار أبيها أمام الحاكم. سألها الرجل: ماذا تريدين بالضبط أيتها السيدة؟ قالت فى وضوح: نصيبى فى الأرض يا سعادة الحاكم. قال الحاكم آمراً الشايب: أعطها نصيبها، هذا حق. فجأة هبط الشايب متكوماً على الأرض: هذا خراب بيت يا باشا، حرام أن تلوى بنت ذراع أبوها، والله عيب يا باشا، ماذا يقول الناس عنى؟ قال الحاكم بحسم: العيب هو الظلم، وليس ما يقوله الناس، مفهوم؟ العيب أن تظلم سيدة، وجرفس باشا هو ملك سينا، no no، انتهى الأمر، فيرانى أجمع كل الناس هنا، صاح الفيرانى بالناس فاجتمعوا أمام الباب، غادر الأحمر كرسيه الخيرزان، وقف واضعاً عصاه تحت إبطه، ثم صاح بالناس: لابد أنكم تعرفون أن القانون الذى أستند عليه يقول أن الكل سواء، وهنا أنا الدولة، وما أقوم به الأن هو القانون، فيراني، هات الحصان.

قبل أن يمتطى الحاكم جواده الأحمر، قامت زوجة الحاكم حتى وقفت قبالة الفاطم متسائلة: بماذا ستنفعك هذه الرمال؟ أجابت: نصيد عليها السمان ثم أنها حقى، قالت السيدة الغريبة: إذن اذهبي مع الحاكم، ولن يرضى أبداً أن تظلم سيدة، هذا عيب، وحين امتطى الباشا حصانه التف حوله الشيوخ والأولاد هاتفين: أرضنا يا باشا، قال: ok أنا أعرف القانون. عن يمين الحصان سارت الفاطم ووراءها أولادها، يتقدمهم الصالح فيما كان يسير عن يسار الباشا اسماعيل الشايب وأولاده وعدد من شيوخ القبائل.

صعد إلى الكثيب العالى من الرمال، قال للفاطم: هل تعرفين بداية حدود أرضكم؟ قالت: ها هنا يا باشا، عند هذا الحجر الأبيض، من عند الحجر سار الحاكم فى خط مستقيم متجهاً ناحية الشرق، تجاوز الذكر بقليل وعند حجر أبيض كبير آخر صاحت الفاطم: هذه نهاية الأرض يا باشا. توقف الراكب صائحاً: فيرانى من الحجر الى الحجر تقاس المسافة بالمتر ثم تكتب فى سند رسمى أن هذا ما أعطاه حاكم سينا إلى السيدة فاطم اسماعيل، ويختم السند بخاتم المحافظة، مفهوم؟ هل أحضرتم خاتم المحافظة يا فيرانى؟ قال الرجل: نعم يا باشا أحضرناه.

من على حواف التل العالى هبطوا باتجاه الذكر القديم على الساحل، فيما عفّر الشايب على رأسه بالتراب، زمجر الأولاد بأصوات مكتومة، صاح الحمدان بأخته: والله يا عايبه القتل فيك حلال، وفى أقل من لحظة قبض الصالح على ساق خاله الحمدان ثم طوح به فى الهواء قبل أن يقذفه فى جذع الذكر اليابس ليسقط الرجل بلا حراك، وعندما شاهدت الفاطم ما جرى صاحت بولدها: عيب يا صالح.

هبط الحاكم قبالة خيمته إلى الأرض مستنداً على ركبه فيرانى، دخل خيمته وأشعل غليونه، ثم أمر بالأوراق والكاتب، أين السلمي يا فيرانى؟ أجاب الرجل: موجود يا باشا، إذن اكتب ما يمليه عليك حاكم سيناء:

توقف الرجل عن الكتابة مرتين حين كان الحاكم يسأل الفاطم عن حدود الأرض الأربعة وأسماء الجيران، المرة الأولى حين ذكرت له حد الأرض الشمالى وقالت: الحد هو سابع موجه فى البحر. فضحك الحاكم قائلاً: أووه مدام، كيف هذا؟ قالت: البحر يأتى ويذهب يا باشا، والأرض تزيد وتنقص، قال: no no هذا ليس معقول، اكتب يا سلمي: ساحل البحر فقط .

والمرة الثانية: حين ذكرت الحد الغربى للأرض قائلة: هو الدرب السلطانى يا سعادة الحاكم، ثم يليه أرض ملك آل السكّاك، تساءل الحاكم مندهشاً: أى درب سلطانى يا مدام؟ قالت: هو درب الحج القديم قبل نشوء الأسفلت. أجاب: فليكن الأسفلت هو الحد إذن. قالت: لا لا يا باشا، حرام، سندخل فى أرض الجيران، هذا ما لا نرضاه لأنفسنا. قال وهو يهز الرأس الأحمر: عفارم يا مدام، أنت سيدة أمينة وهذا يثير إعجابى. ردت بعفوية: الأرض ستبقى يا باشا، لن نأخذ منها شبراً حين نموت، لكن الله سيحاسبنا على كل خطوة فيها، لا نريد أن نشقى فوق الأرض، ولا أن نتعذب داخلها، الله الغنى.

مهر الحاكم السند الرسمى بتوقيعه الغريب، أمر الشايب بالتوقيع عليه كشاهد، ووقع الشيوخ والعواقل، وزينه بخاتم المحافظة الأحمر العريض، طبقت الفاطم السند بيدين قويتين، انتصبت كحق شامخ، ودست الورقة العريضة فى صدرها. حين انفض الجميع وغادر الحاكم المكان، التف الأولاد حول الشايب، صرخ فيهم غاضباً: قلت لكم أعطوها ما تريد، احتملوا إذن بلا بكاء. قال ولده جبريل الشيخ: سنة غبرا يا حاج، وكما يقولون: سنة الخرا، أربعة وعشرين قيراط. فيما وجه الشايب وجهه للبحر قائلاً: الله يسامحك يا فاطم.

الهجّان

- ١ -

ولا قلب خالى من الهم، حتى قلوع المراكب. تنهدت الفاطم ذات صباح، كان العام ١٩٢٣م.

قالت: ماذا جرى للك يا خوى؟ أجاب الهجان الأسمر، **الغندور** كما كانت تدلّله: والله ما أعرف يا فاطم، صدرى يضيق حتى أشعر أنى اختنق. يا خوى قول يا رب، إن شاء الله لا يكون غير مطر السلامه. سقته ماء الأبار الجبلية، غلت له المرمرية الخضراء والنعناع البرى، دست له الحلقة المباركة فى كبد زغلول، جاءت بالشيوخ، وأهل الله لعيادته، قرأوا على رأسه وصدره الأيات والتعاويذ، رشف واحد من **الجريرات** عليه تيمناً بالعرق الصالح، لكنه رفض نصيحة من أشار عليه بالكى، لم ينس قط أنه ربيب العواصم، وأن كثيراً مما يراه ويحياه لا يصل إلى أعماق قناعاته، حتى وإن صار هجاناً، حتى وإن ارتبط وجوده بهذه الأرض والصحراء ومن فيها، نعم صار زوجاً للفاطم، أباً لأولاده منها وكانوا ظهره اليابس، جداره الذى لم يهتز فى أحلك اللحظات.

نحيلاً ظل على حاله الأول، الحال الذى شاهدته عليه الفاطم أول مرة فوق ظهر بعيره على جسر الوادى. فقط صارت اللحية السوداء أكثر غزارة، ولما تزل سوداء صافية، نظيفاً فى مظهره، يتمنطق بحزام جلدى سميك، يلف على صدره شريطاً معبأ برصاص بارودته، قليل الكلام، عيونه سابحة فى غمام بعيد كأنه كان يحلم بشئ ما أو يترقب شئ ما، نعم كان هجاناً لكنه يطرب للبحر، للصيد، أغانى السوامر البدوية تلك التى تقام فى الأعياد والمناسبات الكبيرة، قليل الإعتناء بحسابات الحياة، لم يعرف عنه أبداً أنه كان مهموماً بالمستقبل، فهل كانت شخصية الفاطم قد ألقت بظلالها على حياة الهجان وسلوكه؟

لم يختلفا قط، هى قادت الأسرة، دبرت الشئون، وعند الأزمات ونشوب المعارك تحمل نبوتها الغليظ، وتربط وسطها بحبل غليظ وتندفع وسط الرجال صائحة بأولادها: كونوا فى ظهرى وحسب، أو تهتف بالهجان: خلى عنك يا خوي. كأنها كانت أمه، شقيقته الكبرى، فى الحقيقة واحداً من أولادها. فلماذا فجأة يعكر الهجان صفو الفاطم بشكواه؟ هو الذى لم يتجاوز بعد عامه الثانى والخمسون.

حين شاهدت عزوفه عن طب الأعشاب، ووصفات البداوة، تلميحه لأكثر من مرة عن وجود أشقاء له بالعاصمة قالت: أتريد أن تذهب إلى هناك؟ أجاب: يرانى الطبيب، أرى أشقائى، والله يفعل ما يريد. قالت: فليكن.

ركبوا القطار وسافروا للعاصمة، لم ترغب أن يصاحبها أحد من أخوانه أو أولاده، قالت: ليش يسافروا، عسانى عاجزة ولا أقدر أن أدبر أمرى! ثم لا نريد أن نُحمل أحداً فوق طاقته. فى العاصمة تلقاه شقيقاه اللذان آثرا المكوث هناك، ولم يرافقا الأب فى هجرته إلى الصحراء البعيدة، سريعاً ذهبوا به إلى الطبيب، وسريعاً عرف الطبيب سبب ألم شكوى الهجان: إنه الصدر، هل يدخّن؟ هل يعمل بمناجم؟ واصل الطبيب أسئلته فيما نفذ صبر الفاطم: أحكيم أنت أم ضابط بوليس؟ إن كان عندك علاج فاكتب، ولا حاجة بنا لكل هذا الكلام، ثم أردفت غاضبة: وحياة ربى فى سماه لا يعرف العلة إلا باريها لكنها أسباب، إن شاء الله خير.

-٢-

كان مرض الصدر آنذاك خطيراً، توسل شقيقه الأكبر العثمان إلى الفاطم أن تتركه لديهم بالعاصمة يتلقى العلاج حتى يبرأ من داءه، الهجان قال: لا، هناك براح وهواء أحبه. صرف العلاج المكتوب، وأصرت الفاطم على أن تدفع الثمن، قالوا لها: نحن أشقاؤه قبل أن تتزوجى منه ولا فرق بيننا. أجابتهم بصدق: أنا أمه قبل أن أعرف أن له أشقاء، ثم لا فرق. رافقوه إلى محطة القطار وودعوه أسفين وحاسرين فيما واصل الهجان شروده وظل واجماً نادر الكلمات.

وحين تحرك بهما **قطار الشام** كما كان يسمى! جلس ملاصقاً للنافذة، وهى جلست بجواره، أرخى غطاء رأسه على كتفيه، دثرته بعباءته السوداء، قالت مشجعة: هوّن عليك يا رجل، غمة وتزول إن شاء الله، أومأ برأسه دون أن ينطق بحرف، بعد ساعة من السفر، هز الفاطم بيده، استدارت إليه ملهوفة. قال: هل معك جرعة ماء؟ أه يا خوى، دست ذراعها تحت رأسه حتى اعتدل قليلاً، وناولته الماء الذى طلب، ارتشف جرعة أو جرعتين، التفت إليها قائلاً: أم الصالح، ايش يعدل البخت إن مال؟ لم تهضم الكلمات، وقالت: اذكر الله يا رجل. واصل: أنتِ جمل الحمول التقيلة، شدى حيلك يا فاطم، وديرى بالك من الأولاد. نهرته برحمة: ليش الفال الشين يا غالى؟ قال بهدوء: سمعت الكبار يقولون: **طيحة السلامه ليها علامه**، وأنا لا أرى علامات يا فاطم، لكن الحمد لله على كل حال.

مال برأسه ناحية النافذة، قالت فى نفسها: هواجس مريض وغريب، ليستريح قليلاً ثم ينهض صافياً من زحمة الكابوس، بعد قليل من الوقت عاودت رفع الغطاء الأبيض الرقيق عن وجهه، كان غارقاً فى السكون، مستريح الملامح وراضياً، حتى أن كل علامات المرض والتوجع قد زالت تماماً

عن الوجه الأسمر النحيف، جاش قلبها بالذى لم تصرح به أبداً من قبل: والله زين وحبوب يا حسين، عقلها الذى لا ينام زجر عواطفها للوراء، ألصقت فمها وأذنيها على الوجه الهادئ المستكين، كان بارداً قليلاً! ربما تسرب هواء من النافذة، هبطت بوجهها على صدره، ألصقت أذنيها على الصدر الساكن، تتلفت حواليها، ما من قريب ولا رفيق، غرباء يملأون المقاعد، متى كانت تستعين بالغرباء؟ ثم تستعين على ماذا بالضبط؟ ما الذى جرى ولا تريد أن تصدق أنه قد جرى بالفعل؟ جذبت يده إليها ورفعتها إلى صدرها، تركت اليد المرفوعة فهوت إلى حيث كانت ممددة ساكنة.

كيف أسدلت غطاء رأسه على وجهه مرة أخرى؟ ثم شدت عباءته السوداء عليه من رأسه حتى قدميه، هزت رأسها بوجع عميق وغائر، أحكمت غطاء رأسها الأسود، اعتدلت فى جلستها كحجر أصم: لا، لا يا فاطم، ما جدوى الدموع الأن؟ فقط يكرمنى ربى حتى أصل به إلى أهله هناك.

يا حسرتى عليك يا حسين، الأولاد رجال وسيكبرون، البنات تتزوج، الاخوة دمعتين وخلاص، وحياة اللى يفرق الحى من الميت يا خوى ما راحت غير على اللى راح، لكن الصحبة يا حسين لا تهون غير عند قليل الأصل، وحياة غربتى يا حسين كان بدرى عليك يا خوى.

عبر القطار كوبرى الفردان فوق القناة، وتوقف فى مدينة القنطرة شرق حيث كانت نقطة عبور الجمارك والحجر الصحى للداخلين والخارجين من سيناء! كانت الفاطم صامتة فى أسى، والجسد المسجّى بجوارها يثير عواطف الشجن فيها، صعد رجال الجمارك وطبيب الحجر الصحى، وعندما توقفا بجوارها سألاها عن النائم إلى جوارها، قالت: متعب ونائم. قالوا: أيقظيه دقيقة واحدة، وليعد إلى نومه، تحيرت فى الجواب عندما كشفوا عن وجهه

الغطاء، تقدم الطبيب إليه، وقبض على نبض يده، لم يكن هناك شئ يقال. هذا الرجل ميت. أين شهادة الوفاة؟ قالت: لقد مات فى القطار يا حكيم. إذن لابد من إجراء الكشف، واستخراج الشهادة، لابد أن يهبط الأن ثم تأخذين تصريحاً بدفنه. قالت: بماذا تنفع الشهادة؟ ولماذا يهبط هنا؟ أنت حكيم وتقول أنه ميت، دعنا إذن نرحل لأهلنا ونواريه التراب. استبد بها الغضب لكن الطبيب كان عبداً للقانون فهبطوا به هناك، تعرف عليها بعض أهالى البلدة من الأعراب، ساعدوها لأن تأخذ جسد الحسين إلى ديارهم، أعطاهم الطبيب الشهادة الميتة، غسّلوه قبيل الليل وألبسوه أكفانه، قالوا: ليس للميت سوى الدفن. غرقت فى صمت القهر، باتت إلى جوار القبر الغريب عن الديار، وفى الصباح الباكر صعدت للقطار بمفردها، وعباءة الحسين السوداء على كتفها، وواصلت الذهاب إلى هناك وحيدة. نعم هى تعرف أن القيامة لن تقوم، أن الحياة لن تتوقف بعد الحسين أو بعد أى أحد، لكنها تشعر بغصة فى القلب، تزفر قائلة: يا بوى عليك يا موت ما أصعبك.

وفى غروب شمس ذلك النهار هبطت المدينة المحاطة بالرمال، رمال هى حقاً لكنها تراها رمال حية، حتى الهواء يا أخى له مذاق ها هنا، حملت متاعها القليل من الثياب والأشياء، والوافر حتى التخمة من الوجع الجديد عليها، وجع صار يغوص فى الجسد الفتي بل صار ينهك الروح التى كانت دائماً وثّابة وعارمة.

عرف اخوانه وأهله فجاؤا على عجل، كان أول من لاقت ابنتها الكبرى العزوز، احتضنتها قائلة: ما باليد حيلة يا بنتى، أمر الله على الراس والعين، تشددت البنت وصاحت باخوانها فاجتمعوا حول أمهم المتشحة بالسواد، حين شاهدت الولد قبل الأخير: سند، أسمراً فى لون أبيه، جذبته إلى صدرها، هجع الصغير فى الصدر الركن، قال: أنا دونك يا أم. ربتت على رأسه

وأحرقت دمعتين فى زفرة ساخنة، ناجته بود: إن شاء الله ظنى فيك ما يخيب، فيما قذفت صرة العلاجات التى لم تجد نفعاً مع الحسين إلى العزوز قائلة: علها تنفع أختك الفطوم فهى منذ ولدت وهى تسعل وتشتكى.

نصبت العزاء للحسين فى دارها رغم أنف اخوانه، قدمت القهوة المرة، وجلست وسط الرجال، لكنها حين توقن أن أحداً لا يراها، تسند يدها الكبيرة إلى الرأس المثقل وتقول:

لمين أشكى موجع القلب لمين، وأنا مالى على البلوة صديق يوافى، غير البكا والجض والنين، ساعات أبكي، وساعات أهيل الدمع من مقلة العين، وساعات ألطم على كفافي.

يا خسارة يا حسين، لو لم يكن الموت من عند الله لقلت أنه مجنون، وحاربته بالنبوت.

لا يقطع عليها حسرتها العميقة غير سؤال سند: يا أمى فى أى مكان دفنوا أبى؟

-٣-

أى والله يا جبريل: أخت الخوّاضة خوّاضة (**الناقة المدربة على خوض الماء**)

لكن يا ولدى: الدقن اللى ما تجود، تنغصب (**ما لا تعطيه جوداً وكرماً، قد تعطيه قهراً ورغماً**)

كان اسماعيل الشايب فى مجلسه وسط أولاده يعقب على مطالبة ابنته الكبرى: الشلبية، بقطعة أرض مجاورة للتى انتزعتها أختها الفاطم من قبل.

لقد ساقها أولادها، أبناء الحسانى للذهاب إلى جدهم قائلين: يا أم قولى، نحن فقارى دقارى (**مُدقعين**) ونريد أن نعيش. ذهبت وفعلت ما طلب منها أبناءها: عند القوت ما فى حيا. وتحقق لدى الشايب المثل القديم: أول الرقص حجلة.

ثم عقب قائلاً: أعرف والله أن الدمل الذى نخسته الفاطم لن يكف عن الرشح، لكنى لا أريدُ جرسه (**فضيحة**) ثانية، أعطوها سلخة من الأرض يا جبريل، واطمروا فاها. استكان الأولاد لرغبة أبيهم، وأعطوها شريطاً من الأرض الصعبة الغير ممهدة. قال أولاد الحسانى: لا يهم، نحن نسويها، عملوا كالمجانين، ليل نهار، ثلاثة أعوام بلا راحة وهم يحفرون ويغرسون كأنهم مساجين يقضون فترة العقوبة فى المواصى، لم يصدق الشايب وأولاده هذا السعار الذى أصاب أولاد الحسانى حتى صار لهم سرداباً مغروساً بالنخيل، صار لهم مركباً وحيزاً فى البحر لا يهبط فيه سواهم، علق خالهم سلامه الشلالى على ما فعلوه: عجايب، صار للخرا مرا (مرأة) وصار يحلف طلاق. غير أنهم في سعار العمل لالتهام هدية الجد، ربما كانوا يغرسون بعض فسائل النخيل فى الأرض الخاصة بالفاطم، وحين تسأل: لماذا تميلون علينا؟ يجيبون

بأسف: والله ما نقصد يا خالة، وعلى العموم ما زرعناه عن طريق الخطأ فهو مناصفة بيننا، تقبل الفاطم وتحذرهم من تكرار الخطأ.

لا أحد يقرأ الغيب، لكن الصبى سند يجذب ثوب أمه الطويل متسائلاً: لم لا نزرع نحن أرضنا؟ تجذبه من يده وتمضى، ربما لا تريد الجواب الصحيح : من يزرع يا سند؟ اخوانك الكبار يعملون بوظائفهم، ويقطنون المدينة، لا يأتون إلى المواصى إلا على سبيل النزهة وعند اعتدال المزاج، لكن الأرض يا سند لا تطير. قال: حين أكبر يا أم سأزرعها كلها. ابتسمت ابتسامتها النادرة منذ أن غاب الحبوب فى مقابر القنطرة، شدت على يد الصبى قائلة: أسود وزربون. عبس الصبى قليلاً، مازحته: زعلت؟ يا ولدى كان أبو زيد الهلالى أسود غطيس، عارف يا سند، الرجال مخابر ما هم مناظر، وأنا عشمى فى الله أنك صاير سبع رجال، إن شاء الله خير يا ولدى.

عوشى

-١-

ظهيرة حامية، النساء فى **المشرّات** (عرائش من الجريد) تواظب على تقطيع الرطب إلى نصفين (يسمى شقيق) وعمل أقراص العجوة المدهونة بالسمسم، فيما الرجال يواصلون رحلة الحياة فى شريط المواصى، وإذن ما الذى لم شمل القاصى والدانى بعد ظهيرة ذلك اليوم عند عرائش الخالة تمام والخال حسن؟ يقولون: أن العسكر قد أصابوا عوشى برصاصة. يا رجل تف من حنكك، يا رجل قول وغير، وقبل غروب النهار كان الشايب يتقدم الرجال الذين تدافعوا حول عريشة تمام والخال حسن ليعرفوا حقيقة ما جرى. ظلت النساء تحوم حول العريش تتوسطهن الخالة تمام جالسة على ركن العريش الغربى، غليونها فى يدها تتعجب من الزحام الطارئ، والذى لا ترى له مبرراً غير أنه قلة عقل رجال ومحن نسوان، قالت: ماله عوشى؟ خبطة فى دراعه، وايش يعنى! لا تعرف الخالة تفاصيل الحدث، لكنها مطمئنة، رابطة الجأش كعادتها. ما أرحم الجهل أحياناً يا خالة.

فى منتصف العريش الواسع، يتمدد عوشى على بطانية سمراء بالية، يستند بظهره ورأسه على عمود أثل غليظ يتوسط سياج العريش من ناحية الشرق، صاح فيه الشايب: ماذا جرى يا ولد؟ وهو أجاب بصوته الرائق: والله أبداً يا خال. يبدو كحوت صغير يتوسط الرمل بجلبابه المفتوح من عند الصدر، صدراً يتسع لأن تقيم عليه مأدبة، ذراعه اليمنى ملفوفة بشال بنى داكن ومدلاه إلى جواره كمجداف مركب راسية على البر، سبحان من يعطى عباده ما يشاء، يرفع ابريق الماء إلى فمه فلا ينزله إلا فارغاً، الحمد لله يقول. يعاود الشايب السؤال: يا ولد ايش اللى جرى؟ أبداً والله يا خال، ذهبت إلى الشواديف صباح اليوم، تمهلت قليلاً عند شادوف الرحمى، أعطانى حزمة بصل، وبعض حبات البندورة، أنت تعرف يا خال أن كشك البوليس الحربى

غرب شادوف الرحمى، ونحن نخاف من لون الكاكى يا خال، قال لى الرحمى: بالله عليك يا عوشى هات الجحش قبل أن يصل إلى رابش العسكر، والله يا خال مسافة خطوتين، وتوقفت لقيت ذراعى بيكب دم على الأرض، طار رحمى، وجاب الجحش ثم عاد إلىّ، لف ذراعى بهذا الشال، وهو يقول: حسبى الله ونعم الوكيل، نحن أردنا الذهاب بسرعة يا خال، لكن جاء العسكر فى لمح البصر، وقالوا: بسيطة، الضابط كان يجرب المسدس فخرجت رصاصة بالخطأ. قلت: مش مهم يا باشا، أعطونا بسكويت وعلبة سجاير، أنت عارف يا خال مليش فى الدخان، والحمد لله على كل حال، بسيطة إن شاء الله. استبد الغضب بالشايب، تلون الوجه الرائق بالحنق: لماذا لم تذهب للمستشفى وأنت جوارها؟ أشار عوشى بيده اليسرى: لا، لا يا خال، المستشفى يعنى سين وجيم، والعسكر قالوا: إذا ذهبت إلى هناك، وقلت أن الطلقة جاءت من كشك العسكر، سنقول أنك كنت تحاول السرقة فأطلقنا النار. بالله عليك يا خال لا توسع فى الموضوع، بس شوفوا حد يطلع الرصاصة من دراعى. يحتد عليه الشايب: أه يا وسخ، ويجيب عوشى: حكومة يا خال، ماذا تريدنى أن أفعل! وإن كانت حكومة يا هامل: يرد عليه الشايب.

فكروا سريعاً فى استخراج الرصاصة من ذراع الولد: هاتوا الدكتور، هكذا هتف الجميع. ركب أحدهم على دابته، وهبط إلى الطريق الذى يمر وسط النخيل، ليس أكثر من عشرون دقيقة حتى عاد الرجل، وبصحبته الطبيب يحمل فى يده حقيبة حديدية صغيرة، يرتدى جلباباً رمادياً، ويلف وسطه بحزام من الجلد الأسود، وعلى رأسه عمامة بيضاء مستديرة، عينان صغيرتان ضيقتان، شارب أبيض رفيع على فم يابس ومزموم الشفتين، برك الرجل إلى

جوار الشايب متساءلاً: خير إن شاء الله؟ أجابه الشايب: شوف بنفسك يا سلوم، وسوى اللازم للولد.

فغر الصبى الصغير فاه، جذب جلباب أبيه متسائلاً: متى صار يا أبي عمى سلوم طبيب؟ أليس هو من يلقح لنا النخل، ويداوى لنا الماشية حين تمرض؟ ضغط أحدهم على كتف الصبى: اسكت. فيما لا يكف عوشى عن مضغ ما يقدم له من خبز أو عجوة، رفع ابريق الماء إلى فمه، والحمد لله، لا يتوجع، ولا يشكو من ألم، تقدم الدكتور سلوم، وفتح الحقيبة الحديدية ثم تركها جانباً، وزحف بركبتيه حتى لامس جسد العوشى، نزع الشال الملفوف على الذراع، تحسس الذراع ضاغطاً بيده هنا وهناك، مرة ومرتان، لا يساعده المريض فى الاستدلال على مكان الرصاصة، هنا يا عوشى؟ تؤلمك يدى هنا؟ يسأل سلوم. لا يا خال. أين تشعر بالألم يا عوشى؟ مش عارف يا خال، فيرد الدكتور: الله يخرب بيتك وبيت الخال، ويقول العوشى مندهشاً: يعنى أكدب؟ مش عارف والله يا ناس. يتحير الدكتور: يعنى تاهت الرصاصة؟ سبحان الله. سيضع سلوم ابرة من الصلب فى النار، وكذلك مديته المدببة، يستخرج شفرة جديدة، أعشاب مطحونة فى برطمانات قديمة، يقول: اسمعوا، سأفتح قدر شبر فى ذراع هذا الحيوان، لا مفر من ذلك، الرصاصة غائرة فى اللحم، استخرجها ثم أخيط الجرح بخيط من النايلون الأصلى، وبعد عشرة أيام سيكون مثل الحصان. يتردد الجالسين قليلاً: إن كان الأمر صعباً يا سلوم فلنذهب للمستشفى. يحمر وجه السلوم الذى صار طبيباً فى شريط المواصى: اذهبوا به إلى حيث شئتم، لكن حد الله بينى وبينكم بعدها إلى آخر العمر، حتى لو تموتوا جميعاً لن أدخل بيت واحد منكم، ويواصل غضبه متسائلاً: ربما تظنوننى حماراً! يا سلوم تقول ستفتح وتخيط، ويرد بثقة العالم: وايش فيها؟ لقد فعلتها من قبل مئات المرات وبفضل الله، ولا واحدة خابت يا شيخ.

يلتفت الجالسين إلى عوشي: ما رأيك؟ ويجيب الولد: توكل على الله يا خال، العمر واحد، والرب واحد، فيقول سلوم: رجل والله يا ولد. فيما تمام تبدأ فى التساؤل عما يجرى فى داخل العريش، قالوا لها ما حدث، وهي لم تتوقف عند التفاصيل، دخلت العريش على ولدها، والرجال حوله، وتساءلت: عوشى، هل تعرف اللى خبطك يا ولدى؟ قال: لم أره يا أمى. قالت: أنا سأعرفه. فيما تهامست البنات حول العريش: شفتوا، وهو نايم عامل كيف! وحين خرج الشايب من العريش تفرقت البنات على عجل، كما أرسل إلى ابن الشلبية والطافشى، أبناء خالته ليعاونوا الدكتور فى استخراج الرصاصة من ذراع الحيوان الذى يملأ عين القارحة كما تقول البنات فى المواصى.

نصف ابريق من السكران (**نبات ينمو في الصحراء، ترعاه الابل فيصيبها بالخمول والكسل، لاحظ الناس ذلك فاستخدموه كمخدر)** أعطوه للسيد عوشى كى يتمكن الدكتور من إجراء جراحته في استخراج الرصاصة من الذراع العملاقة: ماذا تشعر الأن يا عوشى؟ قال: لا شئ، الحمد لله. أعطوه باقى ابريق السكران لعل وعسى، وظل كما هو عليه، قال الدكتور سلوم: لا فائدة، حتى وإن رعى السكران كالجمال.

تقدم الدكتور إلى راكية النار، والتقط أدواته التى طهرتها النار الملتهبة، واقترح السلوم الطريقة المثلى لبدء الجراحة: ليبرك ابن الشلبية على جانبه الأيسر، والطافشى على الساق اليسرى، وربك يسهلها.

غاص السلوم فى اللحم السميك، فتش ونقب، دار واستدار حول الثقب المفتوح حتى اصطدمت مديته برأس الرصاصة: آه يا بنت الكلب، أنتِ هنا. نظر إلى الرجلين الباركين على يسار المريض، وقال لهما: هانت، عثرت عليها، اياكم أن يتحرك الجمل. أجابا بثقة: لا عليك يا خال، وعوشى أيضاً

أجاب مشجعاً: كمّل يا خال، والله لو كانت فى عينى ما قلت أه، وحين قبض السلوم على جسد الرصاصة، أرخى ملقاطه الطويل إلى جانب الابرة الصلب، وضمها بينهما، ونزعها إلى أعلى فخرجت ملطخة بالدم واللحم، وما زاد عوشى على قول: الحمد لله، بسيطة. فيما انطلقت زغاريد البنات فى الخارج بسلامة السبع من كل عين هايفة. أحرقوا جزءاً صغيراً من حصير الزاوية ثم فركوه كرماد ناعم حار، وأغلقوا به الجرح النازف، وبعد فترة قصيرة من الوقت، عاد العم السلوم، ونظف الثقب المعبأ بالرماد المحروق، ثم عبأه هذه المرة بالبن، وطحين أعشاب لا يعرفها سواه، ثم قام بحياكة الجرح بخيط النايلون الأصلى، ولفه بعمامة بيضاء طويلة، وحين فرغ من كل ذلك تراجع خطوتان للخلف قائلاً: ما عليك شر يا ولد.

نادت الخالة تمام على واحدة من البنات: أعطى الحكيم حلاوته يا بنت، أسرعت الفتاة إلى داخل العريش، وعادت بمرجونة من الخوص المجدول، ووضعتها بين يدى الخالة تمام: خذ يا سلوم، تستاهل يا ولدى، سكر وشاى وأيضاً حبة يقطين صفراء كبيرة، تلمع كقرص الشمس، ويوم السلامه عيد يا سلوم.

فيما دخل الناس أفواجاً على الجريح الذى لم يغب عن الوعى لحظة، ولا سرى السكران فى الجسد العارم، كان شاغل عوشى الأكبر أن يسأل العم سلوم: ومتى أستطيع الصيد والنزول للبحر؟ أنت عارف يا خال، هذه اليمين سلاحى وقوتى، بها أشد المركب للماء، وعليها أحمل زين الشباك المرصعة بالرصاص الثقيل على حوافها، وبها أحمل الدربيل (اللغم) كما أقطع عمدان الأثل، وأربط مطلاع النخل، كل حياتى فى هذه اليد يا خال، ويقول سلوم: كانت شوكة فى كف فيل ونزعناها، الحمد لله.

تلك الليلة أقاموا وليمتهم، فرحين بنجاة الرجل الذى يعدونه واحداً من أعمدة المواصى، لا لشئ إلا لكونه هكذا، عوشى وحسب. فيما ظلت الخالة تمام تردد: غمة وزالت، لكن وحياة شيبتى يا ناس، اللى داس على الزين، لازم له يوم ينداس.

الجرفة

-١-

يذهبون ويأتون، سكان المواصى، لكن عيونهم لا تغيب أبداً عن التحديق فى هذا الشاسع الأزرق: البحر.

أه يا خالتى، لقد قلت لك من قبل أنه غول كبير، لكن رزق الغلابة فى جوفه.

هؤلاء الذين يغرسون بذورهم فى السراديب، ويروونها بماء التمايل حملاً على الأكتاف، وينتظرون بفارغ الصبر أن تشق البذرة سطح الرمل، وحين تهل عليهم بازغة من التراب، تلمع بوارق الفرح العميق فى العيون الكليلة، يتذكرون قول الأجداد: عين الجاني ربيع تاني، يعدون الأيام والليالى، يعرفون لكل زرع ميعاد حصاد ونضج، الخيار أربعون يوماً وتؤكل، البندورة ستون أو سبعون يوماً وتحلب منها، تتكاثف اللهفة لديهم لرؤية عود أخضر، يعدون أوراق النبات بشغف، يقولون: هانت، صار على ثلاث ورقات، وحين يصلح عود جرجير أو رأس بصل للأكل، يخلعونه برحمة فائقة، يحدقون فيه ملياً، يضربونه على ظهور أكفهم برفق، تنظيفاً له من حبة رمل أو أي شائبة، لا يغسلونه أبداً، ليش نغسله يا ولدي؟ بطن الرمل أنضف من بطن ابن آدم. سيأكلون ما تجود به الأرض، وهم دائمى الحمد، ينتظرون المواسم بلحاً كانت أو صيداً للسمان، بذر الشعير بعد سقوط مطر الصليبية، أه هكذا الدنيا تمضى، لكن هذا الأزرق الشاسع يحيط بحياتهم من كل اتجاه، وفى المارس المعروف لكل عائلة فى الشريط، مساحة توازى هذا المارس على البحر، حيث ترقد مراكبهم الخشبية وأدوات صيدهم من غزل ومراسى وطاولات خشبية سميكة. من رجال العائلة الخبراء بالبحر والصيد يشكلون مجموعة الجرفة (ربما نسبة إلى الشباك التي تجرف ما يصادفها في الماء) لن يزيد العدد عن عشرة أفراد، أولئك الذين يذهبون بالفعل على سطح المركب إلى أقاصى الماء، يغيبون يوماً

أو أياماً، لا أحد يعرف الوقت: أنت ونصيبك يا خال، ثم يعودون بما قسّم الله من رزق. لهذه المجموعة من الجرفة قائد، يكون أبرعهم بالمسار فى عرض البحر، مواجهة التيارات، هجمات الوحش، التعامل مع الريح، اصدار ما يلزم من أوامر حين اللزوم دون مناقشة من أحد (لا ديموقراطية في البحر) أو كما يقولون: ما هى مناسبة لطق الحنك. أثناء ذهاب الرجال للجرفة تتعلق عيون أهل المواصى بالبحر، يحملون فوانيس صغيرة، ويحدقون طوال الليل فى البحر ربما ينوس ضوء مركب عائد، ربما يأتى صوت هادر من هناك، ينتظرون عودة الرجال والسلامه من الله، وعندما يصلون إلى الشاطئ يكتظ البحر بالرجال والنساء والأطفال وعابرى الدرب، يقذفون بالحبال الغليظة أولاً ناحية البر، يلتقط أطرافها من يقفون على الشاطئ، ينقسمون إلى صفين يربط كل منهم نصيبه من الحبل على خصره، ويبدأون فى الجذب الشديد: يا الله، يا قوى، هات ما عندك مروة (قوة) حتى تبدأ المركب فى الشحوط على الرمل، يضعون ألواح خشبية عريضة أسفلها، يعدلها الرجال من الجانبين خشية أن تميل، ويدفعونها للوقوف شامخة على الرمل الأصفر، ربما يطيبون خاطرها: أصيلة، وصّلت ما قصرّت، سيواصل الرجال جذب الغزل حتى يقترب من الشاطئ، الثقل يعنى الخير الوفير، والتعب مخلوف ان شاء الله، سيحملون الغزل بين أيديهم ويرفعونه حتى يصلوا به إلى جوار المركب، ويقومون بإفراغ الغزل مرة واحدة، كوماً كبيراً مختلطاً، لا يد من أيدى الواقفين تمتد إليه، وكل من يشاهد تلك الأسماك يقول: يا صلاة النبى، وإذا مر عابر عليهم بادرهم بالقول: البركة عندكم ان شاء الله، فيرددون بترحاب: حلت البركة، إنه عيد صغير لأهل المواصي، والكوم لما يزل على بركته، ستأتى النساء والأطفال بما تساقط من الغزل من أسماك، وتضعها فوق الكوم، يجلس الريس على يمين الكوم، دائما على اليمين، حوله الرجال وباقى العائلة، وبدون تفرقة سيبدأ فى

توزيع الأنصبة، سيغرف بصحن كبير ويعطى لكل واحد من المجموعة نصيبه، هو يعرف كم يستحق، كم عدد أفراد أسرته، وحين ينتهى من المجموعة سيبدأ فى منح الرابضين حوله على الأرض، يفتح أحدهم ماعونه، حجر جلبابه، جواله، يأخذ ما يهب الكريم ويمضى، دون تأفف أو طلباً للمزيد. سيبقى الكثير من الكوم، سيعود الريس إلى فرزه بالصنف، كوم للبورى، كوم للدنيس، أخر للوت، وكذلك السرفيديا، لكن ستبقى البراغيت (الجمبرى) سيعطونها للتاجر هدية بالمجان، أو تأخذها النساء لتغذية البط والدجاج، فيما سيأتى الحجّاب بحماره وعليه صندوقين من الخشب ليحمل الفائض من رزق الجرفة، يذهب به للسوق ويعود بعد البيع ليعطى الثمن للريس، الذى يعود هو أيضاً لتوزيعه على المجموعة، ويقولون: والله خير كتير يا خال، كل من فى المواصى له نصيب من أسماك الجرفة، حتى وإن لم يكن شريكاً فيها: حرام أن يرى الخير ولا ينال منه شيئاً، ثم أن المال يا ولدى مال الله، وربما يرزقنا الكريم برزق هؤلاء المجهولين، اسمع: ما عند الله لا يضيع.

فى المساء سيشعل كل عريش ناره، ولن تشم سوى رائحة الشواء، الليلة ستنام النساء راضيات، وفي الصباح الباكر ستشاهد الحبل الطويل المعلّق بين نخلتين، وهو يحمل غسيل العائلات من ملابس الرجال الخشنة، وسراويلهم الطويلة، لكن لن تشاهد أبداً ثوباً لمرأة. سيخرج الرجال من العرائش متجهين ناحية الرمل الأصفر، يبدأون فى تنظيف الغزل مما لحق به من أعشاب البحر، ورتق الممزق منه بفعل سمك الوحش أو ألسنة الصخور الحادة، سيملأون وقتهم بسرد الحكايات والروايا، مراجعة ما كان منهم فى عرض البحر، وعلى طول الساحل تنتشر جماعات الجرفة، لآل الرفاعى واحدة، لأولاد الشايب، للدربانى والغنام، لجماعة الخالة تمام والخال حسن واحدة شهيرة، حازت شهرتها من ريانها الذى لا يبارى: عوشى، وكذلك لآل اللهدانى واحدة تحت

قيادة سالم أو كما يلقبونه: الأشقر، الحالم دائماً إلى معرفة ما يجرى هناك وراء هذا البحر: يقولون أن هناك بشر مثلنا يا خال، ويقسم: وحياة من خلق سالم من تراب، ما يهدا البال غير أشوف ايش اللى هناك يا خال، ويجيب الرجال: يا مثبت العقل فى الراس، ثبت راس سالم، ويضحكون.

نوم الفاطم: العام ١٩٢٥م

-١-

على موقد نار الصباح، تستند الفاطم إلى مسندها الملتصق بالجدار، ليس لها رغبة فى مغادرة البيت: ايش اليوم فى أيام ربنا يا عزوز؟ أجابتها: إنه الاثنين يا أم. عاودت الحوار معها: ياما قلت لكم أن الاثنين فاله زين، لكن يا بنت، أمك شايفة ليها شوفة. خيراً إن شاء الله: أجابت العزوز. فيما واصلت الفاطم نظرها إلى البعيد: باين يا عزوز، أن **البلاد طلبت أهلها**. فهمت عزوز الإشارة، لكنها لم ترغب فى التعليق، عسى الفاطم أن تخرج من شرودها الأسيان: لم لا تذهبين إلى المواصى يا أم؟ أجابت متكاسلة: لا أذهب إلا أن يريد الله.

فجأة طلبت من العزوز أن تجهز لها حماماً ساخناً، أن تخرج ثوبها الجديد المدسوس منذ عامان فى الصندوق الخشبى، وأن تعاونها فى تبديل ملابسها، وتظل مجاورة لها. فعلت البنت كل ما أمرت به الفاطم، وحين خرجت الفاطم لتعاود الجلوس أمام موقد النار فى باحة الدار الكبيرة، مشطت شعرها الطويل، شدت عصابتها على الرأس، ثم أسدلت شاشتها السوداء الرهيفة على رأسها وأكتافها، وقالت: وسعى فى غداء اليوم يا عزوز، عسى اخوانك أن يأتوا. قبيل الظهر، جاء الصالح الكبير، والحمدان، والحسن، فيما كان سند يأتى اليهم بحمل من الحطب. الفطوم منزوية فى ركن قريب تواصل السعال والصمت. قالت لولدها الصالح: أريد أن أرى جدك الشايب، قال: تبدين متعبة، أنا آتى به إليك، قالت: لا، حقه أن أذهب إليه، وحين وصلوا إلى دار اسماعيل الشايب، استندت على أكتاف أولادها، ووقفت أمام باب الدار، ابتسمت وولجت إلى دار أبيها، جلست فى الغرفة الكبيرة المجاورة لباب الدار كالعادة

(المندرة) دقائق وجاء الشايب مستنداً على عصاه الحمراء، انحنى الظهر قليلاً، تباطئت الخطوة، اللحية البيضاء الخفيفة تزيّن الوجه الذى صار نورانياً شفافاً، حين دلف أول خطوة إلى داخل الغرفة، هبت الفاطم إليه، تناولت يمينه، وهوت عليها تقبلها، وهى الطويلة الفارعة، لم تجد عناءاً فى أن تحوط رأسه، وتضمها إلى صدرها العريض، تقبل العمامة البيضاء النظيفة: رضاك يابا، أجاب الشايب فى رضا: الله يرضى عليك يا بنتى، كررت: سامحنى يا بركه، قال: ما عندى غير السماح يا فاطم. شربوا شايهم وانصرفوا، قالت فى طريق العودة: الخال والد، أتفهمون؟ دار فى خاطرها الولد الأسمر، قالت: أين سند؟ قالوا: سيكون فى الدار قريباً. فكرت: ما أسرع ما يمر العمر، ربما تذكرت الشودايف، حين شاهدت الهجّان الحبوب أول مرة، وفى الدار الكبيرة، صلت العشاء جالسة لأول مرة، رفضت أن تتناول الطعام قائلة: المسافر لا يأكل. تمددت على فراشها، همست للعزوز: ديرى بالك من اخوانك يا بنت، ألم يأت سند؟ نامت الفاطم، وعلى البال يطوف موال قديم:

يا رايحين مشرق لا تطولون الغيبة، والدار يا محبوبى بلاك بلا هيبة، حط الشمالى بوجهك، يا زين لا تنسانى، وقلبى بلون عقالك، أسود من القطران.

عامان لا غير، والقلب الذى كان لا يلين حتى من النار، قد انفطر تماماً، نامت الفاطم فى دثار الموت الدافئ، واستراحت من مكابدة الدنيا، آه يا وليدى كما كانت تقول للأسمر سند: اللى ما يجى معاك بالتوت، هاته بالنبوت. لكنها هذه المرة أيضاً، وحيدة حتى فى القبر، ولو كان بإمكانها الدعاء على أحد، لدعت على طبيب الحجر الصحى، الذى أمر بدفن الحسين فى مقابر الغرباء، لكن رغماً عن أنف الجميع، سنلتقى. الله قادر يا ولدى. تأكدت العزوز من سفر الوالدة، أسبلت العينان الكبيرتان، العينان

اللتان لم تعرفا الإنكسار من أحد، أو فى مواجهة أحد، شدّت عليها غطاءها وخرجت، سحبت الفطوم إلى خارج الغرفة، أخبرت الأولاد فجاءوا يتخبطون، وما زال سند يأتى بالحطب، ناحت الدار بالأسى، وامتلأت بالأهل والجيران، جاءت البلدة تعاين موت المرأة التى كان من أدق أوصافها: كانت بمائة رجل. لكن من كان يتوقع أن يأتى فيرانى؟ ليأخذ موعداً من الأهل والأولاد لقدوم حاكم سيناء، وزوجته النحيفة للعزاء؟ تهيأ الجميع لقدوم الضيف الكبير، أحضروا عدداً من الكراسى، وحين جاء فى ليلة العزاء رفض الجلوس عليها، وافترش الأرض المغطاة بأكلمة من الصوف، تناول القهوة المرة، وأشعل غليونه الأثرى مرتين، هز الرأس وتأسى، شد على أيدى الأولاد وقال: كنت أحب أن أراها تأتى إلينا وتذهب، قوية ومستقيمة، السيدة الفاطم خسارة كبيرة، لكنها الحياة.

فى هزيع الليل الأخير، عاد الجميع إلى منازلهم، بمن فيهم الشايب وأولاده، حين اقترب من باب داره، التفت إلى ولده جبريل الشيخ قائلاً: كانت ظهراً للصغير والكبير، والله يا ولدى، ما كان فيها من عيب، غير أنها قوية، الله يسامحها إن شاء الله، وكم من كبش سبق أمه للذبح، شوف حكمة ربك يا جبريل.

بزوغ

-١-

أسمراً عفياً خشناً، مكتنز العضلات، عينان كبيرتان عميقتان، يترجرج فيهما عسل رمادى، شعراً أسوداً غزيراً ينسدل على الأكتاف، لكن هذا الصبى البازغ، بعد رحيل الفاطم، وهو يأتى بحمل من الحطب، يشعر بالخواء العظيم.

لا أحد فسّر هذه الظاهرة: من أين جاء هذا الولد بكل هذه الأوصاف والصفات؟ هو الوحيد من بين أشقائه من لزم دور أخواله، فعرفهم كبيراً وصغيراً، رجلاً وامرأة، ولأن الحياة كانت فقيرة آنذاك، استند إلى ساعده فى خلق حيز للحياة، وحين هوى الجدار الذى كان يحوط الجميع، صار يقول: حين لا تجد من تميل عليه، ميل على دراعك. لقد وقع سند فجأة تحت رحمة الكبار من اخوانه، انهم يكبرونه أولاً، ثم هم فى الحقيقة مصدر القوت: هات حطب يا سند، هات ماء يا سند، اذهب بهذه الأشياء يا ولد، ثم انتقلت سلسلة الأوامر التى لا تنتهى إلى زوجات أشقائه، كأنهم وجدوا فجأة بين أيديهم عبداً يقضى كل الحاجات. تبرم بالأمر، واشتكى إلى اخوانه الكبار، قالوا له: احمد ربك، ولا تشكو ثانية أو تتكلم. حمد ربه، ولكنه عزم على عدم الخضوع لواقع الأمر، صار يطيع أمراً، ويهمل عشرة، نال عقابه السريع ضرباً وإهانة، تحير فى اللقمة الحزينة، فى مكان النوم، ضاقت نفسه أكثر، ففر إلى الخلاء عند اخواله، رعى الغنم معهم، تعلم ركوب الابل، صاد الأسماك فى مراكبهم، عاون فى غرس الفسائل وزراعة السراديب، رافق البدو العابرين، وعرف براح الحرية، وحين عاد للدار، عادت الأوامر، وعاد الرفض مقروناً بالضرب والسب، قال له جده الشايب: عارف يا سند، العز بعد الوالدين هوان.

وقبل بلوغه صار مهيباً، وصار لسانه أكثر غرابة، يجمع بين لهجة البادية ولغة أهله، يحفظ ما يقال فى مقاعد الرجال، رافق قضاة العرف حين يحكمون ويفصلون فى أعصى المنازعات، شهد سوامر البلدة وحضر سباقات الابل، صار شديداً وصعب المراس، وهو لم يبلغ بعد الخامسة عشر من العمر.

قالوا: كأنه نبت برى، وحش تعذر على الترويض، فيما قال له جده، وهو يمده بالنصائح: اقسى يا سند أكثر وأكثر، تسيج يا ولدى بالشر، الشر سياج على أهله، لكن لا تدع الشر يصل إلى قلبك أبداً.

حين مر ذات صباح فى سوق المدينة، وقف فى الساحة الواسعة، يشاهد ما يجرى تحت شجرة الأكاسيا العملاقة، تساءل: ماذا يجرى هنا؟ أخبروه أن حاكم المدينة يختار أفراداً للعمل كهجانة فى سلاح الحدود، قال لهم: أريد أن أعمل كهجّان معهم، ضحك الرجال وسخروا منه، قالوا له: إذن اذهب، وقف معهم فى الطابور، هو لم يكن يسخر، ولم يلتفت إلى الضحكات، ذهب ووقف فى طابور الرجال حتى جاء الدور عليه، حين رآه الشاويش، نظر إليه شزراً، سحبه من يده، وأخرجه من الطابور قائلاً له: اذهب لأهلك حتى تكبر.

كان الحاكم قد غادر المكان، ولم يمض سند للبيت كما أمره الشاويش، ولم ينتظر حتى يكبر، ذهب راكضاً إلى بيت الحاكم، وانتظر قدومه عند الباب، حين هل فيرانى، يسبق ركب الحاكم الأحمر، نادى سند بأعلى صوته: يا سعادة الحاكم، وقف الأحمر القصير المهيب: ماذا هناك يا فيرانى؟ قال له مجيباً: هذا الولد يا باشا. نظر ناحيته وأشار إليه من فوق ظهر حصانه: أنت تريد شيئاً من الحاكم؟ قال سند، وهو يقترب منه: نعم يا باشا، أنا سند ابن الفاطم، الشاويش الحميدى يرفض أن يقبلنى كهجان، وأنا بعد موت أمى، وحيد، ومهان، قال لى الشاويش: أنت قصير، ولا تصلح. هتف الحاكم

بفيرانى: أنزلنى هنا. هبط الحاكم على الأرض، وقف إلى جوار سند، ملاصقاً له، كتفاً بكتف، مال برأسه الأحمر حتى اصطدمت برأس سند، فصارا متوازيين تماماً، قال: أنت فى طولى بالضبط، وإذا كان كلام الشاويش الحميدى صحيحاً، فأنا لا أصلح أن أكون حاكم سيناء، ها ها ها، اسمع يا ولد: تلقانى غداً، تحت شجرة الأكاسيا في ذات المكان.

بسروال أبيض وجلباب قصير، صندل جلدى رث، ذهب سند لالتقاء الحاكم، وانتظاره تحت شجرة الأكاسيا. تحرك طابور الرجال بسرعة، ومرة ثانية وقف سند بين يدى الشاويش. جذبه الرجل إلى خارج الصف، أمسكه من كتفه، وقال: سأخبر اخوانك الكبار إن عدت ثانية، حرر سند نفسه من القبضة الخشنة، وركض حتى صار بمواجهة الحاكم: مرة أخرى يا باشا، الشاويش يطردنى. وقف المحافظ الأشهر فى تاريخ سينا هاتفاً: ماذا يحدث هنا يا شاويش؟ هل يوجد حاكم آخر لسينا غيرى؟ ما هذه الفوضى؟ تلعثم الحميدى: الولد يا باشا لا يفهم، صغير ويريد أن يكون هجّاناً! قال جرفس باشا: صغير أم قصير يا شاويش أم أنه لا يعجبك؟ وواصل منادياً على سند: تقدر يا ولد أن تحمل الشاويش وتسير به ثلاث خطوات؟ أجاب سند بعفوية: بل أحمله حتى البحر يا باشا، واندفع ناحية الحميدى رافعاً إياه من خصره، وسار به محتضناً اياه بطول الساحة وعرضها، أنزله مباشرة أمام الباشا الذى هتف ضاحكاً: عفارم عفارم، سند ابن الفاطم، فيرانى، جرفس باشا يقبل سند هجّاناً فى سلاح الحدود، مفهوم؟ ورد فيرانى والحميدى والجميع: مفهوم يا باشا.

سجلوا اسمه فى كشوف المقبولين، أعطوه مهمات كثيرة، جوال أخضر طويل، حذاء طويل وثقيل وأسود، والأهم من هذا كله، بارودة طويلة، قالوا له: هذه شرفك، وحياتك، احفظها تحفظك، فاهم؟

ذهب بجواله وبارودته إلى دار أخته العزوز، استحم هناك، حاكت له الثياب على مقاسه، دبرت له غطاء وجوارب، وحين ارتدى ملابسه الجديدة أمام أخته، رشت على رأسه الملح خوفاً من الحسد: اسم الله عليك يا أسمر.

أمضى قرابة الشهر يتردد بين القسم، ودار أخته العزوز. عرف أخوانه الكبار بالأمر، قالوا له: عد للدار إذن، وكن رجلاً كبيراً. تسامحوا معه قليلاً، لقد صار جندياً، وسيكون له راتب، وفى نهاية الشهر الأول من حياته الجديدة، أعطاه الحميدى أربعة جنيهات كاملة. كانت ثروة جيدة، قادرة على شراء أرض، أو منزل طينى صغير، إن مرتب شهرين أو ثلاثة كاف تماماً ليزوج صاحبه. قال له الحميدى متسائلاً: ماذا ستفعل بالمال يا سند؟ أجابه صادقاً: لا أعرف بعد. لكنه قبض على الثروة الطارئة، سار فى الشارع الترابى الطويل، راضياً وممتناً، شعر بأنه مستور، بإمكان المال أن يدعم الحرية، بإمكانه أيضاً أن يكون علاجاً مفيداً للقلق والخوف، وإلا ما فائدته؟

أمام متجر العباسى، وقف الهجّان الصغير، على الطاولة الخشبية الطويلة أمام المتجر، جلس يفكر: ماذا تحتاج يا صاحبى كى تكون رجلاً كباقى الرجال، فى المظهر على أقل تقدير؟ هيئة مناسبة، لا تنسى يا سند، أنت الأن هجاناً، ولك مكانة وهيبة، نادى على صاحب المحل العم سلامه العباسى، اشترى ثوباً جديداً أبيضاً، صندلاً قوياً لامعاً، غطاء رأس طويل ونظيف، عقال أسود رفيع، وسروال طويل، قال: كم تريد يا عم سلامه؟ قال الرجل: ستون قرشاً، مبارك يا سند. دفع الثمن ومضى إلى الدار راضياً، فى قاعة الدار الطويلة، جلس وسط اخوانه بعد الغذاء، صرة المال تحت وركه الأيمن، قال لاخوانه الأربعة الكبار: هاكم النقود، صرفت اليوم راتبى، وأنا معكم فى السراء والضراء. تناول الحمّاد النقود منه، أحصاها ببطء وعناية، ثم قال: أين الباقى؟ أجابه بهدوء: اشتريت لي أغراضاً. أمسك الحماد بالنقود المعدنية وقذفها على

أرضية القاعة الاسمنتية التى كانوا يجلسون عليها، صرخ فيه: والله يا عبد الشوم، لا تبات الليلة فى الدار، إلا وباقى النقود معك، تريد أن تعمل رجلاً علينا منذ الأن؟ لم ينطق بحرف، قام والتقط النقود المبعثرة، واحدة تلو الأخرى، قال فيما بعد: وجدتها كلها، غير بريزة واحدة، لم أعثر عليها، وعلى العموم، لقد سامحت من أخذها، ويضحك.

خرج من دار أبيه مندهشاً، لكنه كان غير وجل ولا حزين، فكر أين ينام؟ ذهب إلى بطين سرور (كثيب عال من الرمل على طرف البلدة الشرقى) أخرج بطانية سوداء جديدة من الجوال، والتف بها، توسد الصرة الجديدة تحت رأسه، احتضن بندقيته فى صدره، وجه عيونه صوب النجوم، وراح فى النوم، صحا مبكراً، ذهب إلى أخته العزوز، وأخبرها بما جرى، شدت من أزره قليلاً، وحين شاهدت العقال الأسود الرفيع يزين الرأس الصغير قالت: بسم الله ما شاء الله، تسلم يا خوى، وتكيد العدا ان شاء الله.

ما زال الرأس الحائر تتجاذبه الأفكار، قال لنفسه: ماذا ستفعل بالمكوث فى المدينة؟ كيف ستصير هجاناً وأنت قابع هنا؟ ثم ما الذى بقى لك بالبلدة بعد رحيل الفاطم، وتنمر الاخوة! قال له الحميدى: فى البدء يلزمك جمل قوى. طاف بالأسواق بحثاً عن دابة تروقه، أخبروه بالسلالات وأصحابها ومواطنها، وفى عمق الصحراء شرقاً، لقي رجلاً منهم، سأله الرجل عن مطلبه، وأخبره سند بمراده، فقدم له قاعوداً (جمل في سن الرابعة أو الخامسة) خلب لبه هذا الأشقر الواقف فى خيلاء وزهو، قال الرجل عنه: انه من سلالة: المليطى، غير أن ثمنه كان فادحاً، ثمانية جنيهات وافية، استدان من زوج أخته باقى الثمن، وعاد **بالوابور** كما أسماه، الاسم الذى عرفته الجزيرة بأسرها فيما بعد. قال له الحميدى فخوراً: أنت الأن هجّاناً يا سند.

الحقوه على الفور بفرقة الهجانة، تلك التى تطوف أرجاء الجزيرة، رافق فيها صناديد الرجال، خبر حياة الصحراء وساكنيها، نما وغلظت عظامه وتعاظم جلده، صار ينهل من الحياة ما تجود به، طارد مجرمى الليل وقاطعى الطريق وأساطين التهريب، صارت له فى كل شبر رواية، وفى كل ركن رفيق، امتلأ بالحكايات والمرائى، وتفتحت الروح على سجية خلابة، نسى البلدة والأهل، الأيام والشهور، يأكل جدياً كاملاً بمفرده، وينام وحيداً فى أوجار الذئاب، اتسع وصار كالبحر، لقد بزغ النجم طوعاً أو كرهاً، وفى القليل أو الكثير من الوقت، فى الصعود وفى الهبوط، لم ينس قط أنه ابن الفاطم، وإذا طاف به الحنين، ذهب به إلى شريط المواصى.

المسعور

-١-

الرفاعى: فرع يمثل ربعاً من أرباع العائلة الكبيرة، يلتقون مع اسماعيل الشايب فى الجد الثانى، ذلك غير المصاهرة الوفيرة بينهم، وتداخل الأعمال فى البر والبحر، كما تتلامس حدود أملاكهم وعرائش سكنهم، ودورهم فى البلدة الصغيرة. ركن الفرع وربانه هو الشيخ محمد الرفاعى، رجل شديد السمرة، وافي البنيان، جسده مدكوك كأنه بنى على مهل، واسع المرارة، حمّال للأذى والنكبات. قال عنه أهل البلدة: رجل مسعور ولا ينام، وربما يكون مع أهله واخوانه فى أقصى شرق المدينة، يرمون الشعير فى براريهم البعيدة، مواسم رمى الشعير قارصة البرودة، وهم بعيدون عن الأهل ودفء الديار، حتى أنك لتجد صعوبة فى إشعال نارك، أو انضاج لقمتك، تمر الأيام والليالى عليهم فى الصحراء هناك فى شقاء متصل، ولا تلحق بهم الرحمة إلا فى سويعات الليل، حين يهجعون تحت خشونة الأجولة الثقيلة طلباً للدفء والراحة، الراحة التى يقطعها بزوغ الشمس بنهار جديد، فيعودون للخوض حفاة فى الأرض الموحلة، قابضين على زمام المحاريث التى تجرها الدواب المنهكة، وفى ناشئة الليل هناك، يحدّق الرفاعى المسعور فى الأفق الواسع حواليه، يتنسم روائح المطر والريح، يتعرف على جهات الهبوب ومعناها، سريعاً يعزم أمره: ها يا ولاد، هذه ليلة وحش وحردون، يريد أن يذهب للبحر، سيأخذ من الرجال كفايته، ويذهب، يقود الجرفة طوال الليل، وحين تبزغ شمس النهار، سيكون قد عاد مع الرجال، إلى باقى الربع والاخوان، ممسكاً فى وسطهم، بزمام محراثه، لماذا النوم؟ يتساءل: غداً يا أولاد الحلال، سننام ونشبع من النوم، حتى تأكل الأرض لحمنا، قبل ذلك لا، واللى بده (يريد) يصير جمّال غير يوسع باب داره. لذلك كان جمّالاً، وبحّاراً، ومزارعاً، وتاجراً، وقاضياً، وفوق ذلك كله، كان شاعراً أيضاً، ويحفظ الكثير من الأشعار، خاصة السير الشعبية،

وهذا ما وطد له حيزاً من الرفقة والصداقة، مع قريبة من ناحية الجد، الشيخ سند.

بمرور السنوات، بنى لأولاد الرفاعى بيوتاً فى البلدة الصغيرة، سراديباً فى المواصى، مراكباً فى البحر، موارس من الأرض الشاغرة، لأنه كما يقول: لا مال أغلى وأبقى من الأرض، كما صنع لهم مندرة واسعة (دار ضيافة) صارت تتسع للأهل والأقارب والغرباء على سواء.

يعرف ما يقوله الناس عنه، يضحك: يقولون مسعور ولا يشبع! ليكن، الرجال والطمع. تزوج مرتين، وحين ينظر إلى أولاده من البنين، لا يعجبه الحال، يضرب كفاً بكف: والله صحيح، النار ما تخلف غير الرماد، عيال كالدواب، تأكل وتنام، لا يفعلون الشئ إلا اذا أرغمتهم عليه، والسيف يا خال، ان وضعته فى اليد المرتعشة لا يقطع، ماذا يظن أولاد الكلب هؤلاء؟ أن أعيش بينهم مثل نوح! والله ليأكلهم الناس غداً، ويأخذون رغيفهم من يدهم، وهم لا يرفعون يداً، ولا تسمع لهم صوتاً، يا خسارة تعبك يا أبو رفاعى، عوضى على الله يا ناس، لكن أيضاً، ورغم كل هذا، لن أنام ، ليقولوا ما يشاءوا، سأفعل ما أشاء.

ستمر سنوات وراء سنوات، تتضاعف ثمار الحياة القاسية، مئات الأوراق والصكوك، مستندات أملاك بلا حصر، ولقد غدا صاحب تموين البلدة، صار يحتاج إلى من يجلس فى محل التموين، يشترى ويبيع، يعطى ويأخذ، يعرف الحساب، ويصون الأوراق والحقوق، نظر حواليه يفتش عمن يقوم بهذا الدور، الأولاد؟ لا يا خال، لا يحتملون العبء الكبير، أنا! أنت تهذر يا رجل! أنا ما ينفع فىّ العلام، بعض الناس وجدوا على الأرض ليكونوا قادة فقط، أخيراً وقع اختياره على الرشدى شقيقه الأصغر، أجبره على التعلم، مرة تحت سيف التهديد بالعمل اليدوى أسوة باخوانه وباقى أهله، ومرة أخرى

تحت سيف الآمال العريضة، إن أفلح فى القراءة والكتابة، بعد ثلاثة أعوام أو أربعة من المكابدة والصبر، بدأ الرشدى يفك الخط ، ويكتب الأرقام، واصل الرفاعى دفعه للمزيد من الإجادة، وذات مساء فى المندرة الكبيرة، أصدر الرفاعى واحداً من قرارات السيادة: يا أهل البلدة، منذ الآن، الرشدى أخى الأصغر صار أستاذاً.

وعما قليل سيذوب الاسم القديم من ذاكرة الناس، ولن يبقى لديهم غير اللقب الذى خلعه عليه الرفاعى الكبير. تريد أن تكتب خطاباً أو تقرأه، اذهب للأستاذ، إذا كنت بحاجة إلى كتابة عقد بيع أو شراء فعليك بالأستاذ، ترغب فى شاهد على عقد أو زواج أو صلح، فمن لك غير الأستاذ؟

كذلك ما تحتاج إليه من مؤن وطعام وسكر ودقيق، فليس لك فى البلدة سواه، هكذا صار الأستاذ أستاذاً.

لاحقاً انطلق المسعور، متفرغاً مع باقى الأهل والربع إلى هوايته الأصيلة: حلب الحياة.

فيما ترك الخزانة للأستاذ، يسجل ويحسب، ولا شاهد عليه سوى الله، وحين يعن على بال المسعور أن يسأل عن الأحوال، وكيف تجرى الأمور، يقول الأستاذ بثقة: كله تمام يا بركه. إذن على بركة الله.

حتى الخال رفاعي أبو الجراير، كان له دوره فى فلك الربع، فاذا كان الربع قد أفرز الشيخ الرفاعى المسعور، فإنه قد عاد وأفرز الخال أبو الجراير من ذات الرحم القريبة. حتى أن الشيخ الرفاعى حين كان يرى الخال فى واحد من أحواله يقول: نصيبنا يا ولدى، كل عائلة ولها قعيدة (قعيد أو عليل بلا فائدة)

الخال أبو الجراير

-١-

الخال أبو الجراير، ريشة فى جناح، ريشة بيضاء أو سوداء، أى كان لونها، لكنها مغروسة فى اللحم، هذا يكفى، عليك أن تتقبل تفاصيل جسدك كله، جماله ودمامته.

هذا الرجل هو جريدة المواصى الناطقة، حيث لا توجد جرائد من الأصل هناك. جراب ممتلئ بالتفاصيل والحكايا، لا يعمل، ولا يحب العمل، قد يبدو غريباً، أو تكون حكايته غير لطيفة، لكنه يعيش فى الأرض، وسط الحياة، والحياة ملأى بالغرائب والأشياء التى لا تروقنا دائماً. هو ضيف دائم على موائد أهل الشريط، هم يمدونه بالطعام، وهو يزودهم بالأخبار، لاتظن أنها مسألة سهلة، هو يشقى فى الحصول على خبر، ثم يشقى أكثر وهو بصدد اخراجه للناس فى صورته النهائية. عارى الرأس دائماً، مقود حمارته السوداء دائماً ملفوفاً على عنقها الطويل الرفيع، وهى أيضاً شديدة الشبه به، ذات دراية بالعناوين والبيوت والدروب التى يسلكها صاحبها. لم يشاهد قط من غير أن تزين رأسه أو وجهه قطع صغيرة من ورق، ملصقة على الجبهة، الخد، الرأس. هل تنفعك بشئ يا خال؟ يسألونه، ويجيب: انها لا تضرنى فى شئ. صامتاً يتجول بين الشوارع والأحياء، كأنما يستولد الأخبار من مصادر لا يمكن رؤيتها، محنى الظهر فوق الدابة، عينان واسعتان شديدتى الاستدارة والعمق، وفى الشتاء يرفع فوق رأسه عصا من الزيتون، خاط عليها قماشاً بالياً، وأحاطه بجريد يابس كمظلة تحميه من المطر والريح، يقطن فى أقصى غرب البلدة، حيث ورث عن أبيه داراً قديمة، تزوج فى حياة أبيه، فى غرفة من غرف هذه الدار الواسعة، وهو تزوج لا لرغبة فى الزواج، ولكن لأن أبيه أراد أن يرى له نسلاً قبل أن يموت، وهى كانت من العائلة، ولم يتكلف لهذا الزواج أى نفقات. كانت تسمي نفسها بعد الزواج منه **المنكوبة**، وصار فيما بعد

يناديها بهذا الاسم الذى اختارته لنفسها، لا تعرف كم من الزمن احتملت الحياة مع هذا الكائن الغريب، لكنه كان زمناً كافياً لأن تنجب له ثلاثة أولاد وبنت. حتى أسماء الأولاد كانت من وحى خيال رجل غريب بالفعل، الأكبر أسماه **غراب**، والثانى **جريد**، فيما خلع على الأخير صفة **التركى**، البنت لم يهتم بأن يعطى لها اسماً، لقد اكتفى بصفتها وجنسها، فصار يدعوها: يا بنت.

ذات صباح أو مساء لا يعرف تاريخه، أيقظها أولادها من رقدتها تحت شجرة الخروع الكبيرة فى فناء الدار فلم تستيقظ، قال الجيران: استراحت أخيراً. فيما هو لم تختلج له طرفة، حتى جنازتها من الدار إلى مقبرة البلدة، والتى لا يفصل بينهما سوى شارع صغير، لم يشارك فيها، اكتفى فى المساء أن جلس مع الرجال قليلاً، تناول معهم عشاء الرحمة على الراحلة، العشاء الذى أعدته أسرتها واخوانها، ثم ذهب إلى غرفته فى آخر صف الغرف الطويل، لم ينبس بكلمة، ولم يعكر عينيه بدمعة، دلف إلى الغرفة، وأغلق عليه من الداخل بالرزة والقفل، تمدد على جوال الصوف الثقيل، وغرق فى نوم عميق.

تعجب الرجال والنساء فى الخارج، قالت أخت المنكوبة: لقد فقع مرارتها، ووالله لولا الخجل، لزغردت فرحاً بخلاصها من الحياة معه، يغور الهامل وتغور رفقته.

يقيناً لم يستمع إلى شئ من هذا الهراء، كان نائماً بالداخل، ولم يشعر بكثير فرق، قبل موتها أو بعده.

كان يحيا مستقلاً بين أفراد عائلته وأسرته، ويقول: المرة والعيل يا خال زى الدابة، إن لم تربطهما يخربوا البيت. قديماً صرخت فيه المنكوبة أمام الناس: إذن اربطنا يا رفاعى. نظر إليها بهدوء العارف وأجاب: بل يربطكم الله وقت يشاء، ومضى متلحفاً بفروة الكبش على ظهره، والتى لا يخلعها

صيفاً أو شتاءاً، حتى عند النوم لا تفارقه: منها فرش ومنها غطا. قال أهل البلدة عنه: لم نره يوماً يشترى شيئاً من أحد، أو يدفع ثمناً لشئ ما، لأنه على حد قوله: الشارى غرمان. كذلك لم يكن يبيع شيئاً مما تركه له والده، من نخيل أو أراضى، قائلاً: البيع ندامة. غير أن خرج حمارته السوداء كان ممتلئاً على الدوام، إذا سار ناحية الساحل جاء بالأسماك والسردين من أصحاب الجرفات، البلح المشقوق والمشوى، أقراص العجوة، الخضروات من السراديب، وإذا هبط إلى المدينة، عاد بالأرغفة الكبيرة، بعض اللحم والعظم من القصابين، شيئاً من الحلوى، التى يمنحها له أصحاب المتاجر، على سبيل التودد والألفة، وكثيراً من الاعتياد على رؤية الرجل.

لا يرى شيئاً فى عرض الطريق دونما ملاحظة، مسمار صدئ، قد ينفع يوماً، صفيحة فارغة، قد يعلقها على جدار حائط بالدار لكى يبيض فيها الحمام، لا شئ عنده بلا نفع: ما فى شئ يضر غير ابن أدم يا خال، وحين يعود إلى داره قبيل المغرب، يتكوم أولاده حول الخرج المكتظ بالعطايا، لقد شعر الخال منذ أمد بعيد بالظلم والخديعة وسط هذه الأسرة، يقول: شوف حكمة ربك يا رجل، أنا أتعب وأشقى، وهم يأكلون على البارد، والله هذا الحال لا يرضى رباً أو عبداً. لذلك حين شب الأولاد قليلاً، تبرم من تناول الطعام معهم، لاحظ سرعة يد الأولاد فى تناول الطعام والشراب، ويقول متحسراً: أه يا خوى، العيل مش زى الشايب، ثم أنهم عديمى الحياء، لا ينتظرون كبيراً ولا يعرفون الخجل، أفواههم تدور كأنها مرّكبة على عجلات، لا تسمعها إلا وهى تطحن، تك تك تك، أو كأن بطونهم كالأبار، والعياذ بالله، لا تمتلئ أبداً، والله يا ولدى لم أسمع مرة فى حياتى واحداً منهم يقول: شبعت أو الحمد لله، كفرة يا خال.

عند ذلك الحد قام باتخاذ قراره الحاسم: حد الله بينى وبينكم، وعلى كل واحد أن يدبّر حاله. منذ ذلك الحين، لم يجتمعوا على مائدة واحدة. صنع قفلاً لغرفته، وربط المفتاح فى خيط دوباره طويل، ثم علقه فى صدره المفتوح صيفاً وشتاءاً، داخل هذه الغرفة يحيا كما يريد على هواه: لا ناغص ولا نغيص. فى الغرفة ما يكفى لأن يشعر بأنه ليس فى حاجة إلى شئ أو إلى أحد، توجد نصف صفيحة فارغة، يستخدمها للطبخ والغسيل، كيس به حصوات ملح خشنة، بصلاً وثوماً، حطب جاف، وفى ركن الغرفة صندوق خشبى أسود، له قفل أخر صغير، حفر له فى باطن الأرض بحيث لا يظهر منه إلا سطحه الأملس، يدس داخل الصندوق أشياؤه الهامة، ثوبه الأطلس، مستندات ملكية الأرض المتوارثة عن الأب والجد، وما يظن أنه نفيس ولا ينبغى لأحد أن يطّلع عليه، وفى واحدة من المرات القديمة قبل رحيل المنكوبة، ذهبت تشكو حالها، وحال أولادها، عسر الحياة مع الخال، إلى الشيخ سند، قال لها الشيخ مواسياً: بختك يا خال، سأتكلم معه ثانية، رغم معرفتى بالنتائج مقدماً، خذى يا خال ما تحتاجين إليه من البيت، واصبرى على وعدك الحزين. لقد فعل الشيخ ما وعد المنكوبة به مرات ومرات، قال له مرة: ألا ترحم المرأة والعيال يا رفاعى؟ إلى متى الصبر على هذا الحال؟ فيما رفاعى لزم الصمت الثقيل ظناً منه أنها نوبة توبيخ ستمر سريعاً كباقى المرات، وحين واصل الشيخ سند إيلامه: اعدل يا رجل، كفاك عنتاً مع أهلك. تورد الوجه بالغضب، تململ رفاعى فى مجلسه غاضباً: ماذا تريدون منى؟ أعدل! فى ماذا أعدل يا شيخ؟ متى تعرفون أنها هى الظالمة مع أولادها الكفرة، يريدوننى عبداً لهم، شيّال أو خادم، من السوق للدار، وهات يا رفاعى غنايم، أنا أجيب وهم يأكلون، هذا هو العدل؟ لا، لا يا خوى، هم صغار، وأمامهم العمر الطويل ليعملوا ويأكلوا، أنا يا قريبى دوبى حالى، سيرد سند بحيرة: يا رفاعى

أنت أبوهمّ ويصرخ رفاعى: أه أبوهم، لكننى لست ربهم، اسعى يا خوى، وربك يرزق، أموت يا سند كى يعيش العيال؟ ماذا يمنعهم أن ينطلقوا فى الشوارع ويشبعون؟ الكلاب لا تتحير فى قوتها، ظلمة، وأنا حد الله بينى وبين الظلم، السلام عليكم، ويغادر غاضباً.

سيقول سند: لا فائدة، ويتذكر يوم أن جفلت به حمارته السوداء، طارت به فى الهواء، وألقته على الأرض، يومها قال سلوم، طبيب المواصي: كسرت الساق. أرادوا أن يذهبوا به إلى المستشفى لوضع القدم المكسورة فى الجبس، قال: لا، لا جبس ولا يحزنون، أنا سأدبر حالى. احتمله الجيران على عربة كارو، وهو يحمل معه صرة من اللبان الدكر والمر، وذهب إلى دار **الربّاب**، جبر له الساق الكسيرة مجاناً، وعاد ليقضى فترة المرض قعيد باب الدار، يتحسر على كل قدم تدب على الأرض أمامه، شح القوت قليلاً، لإنقطاعه عن الطواف، لكن حين علم الناس بما جرى له، جاءوا إليه حاملين معهم ما كانوا يمنحونه من قبل، كأنهم حريصون على سداد ضريبة لم يرغبوا فى أن يتوقف عطاءهم لها، ضريبة ود، لا إجبار عليها من أحد.

هو الذى كان يحث الجميع على السعى، حتى وإن كان بلا هدف: ليس مهماً، فقط تحرك:

كلب داير خير من سبع نايم، تحرك فقط.

تلك الليلة التى زاره فيها قصّاب المدينة، جاء ومعه ما يعرف أن الخال يشتهيه، عظام ماسورة، سلخة من لية خروف صغير، عرق من ساق جدى سنوى: خذ، خذ يا رفاعى، أنت بحاجة إلى غذاء حتى تسترد عافيتك، وتعود للسعى من جديد. قبض على القرطاس الداكن، ودسه تحت قميصه المفتوح من عند الصدر، أومأ برأسه العارى علامة على الشكر، ثم لزم الصمت والتوجس. بعد أذان المغرب، غادر القصّاب قافلاً إلى بيته، استند الرفاعي

على يديه، وشد عليه القميص بإحكام، صار يزحف حتى وصل إلى باب غرفته، الأولاد قريبون من باب الغرفة، حدّق فيهم زاجراً فلم ينصرفوا، جلس ساكناً يتحسس حبل الدوباره فى عنقه: أخيراً غادر الشياطين المكان، استند إلى جدار الحائط، وقدمه المصابة معلّقة فى الهواء، أدار المفتاح فى القفل حتى انفتح له باب المملكة، وترك نفسه تهوى على الأرض دفعة واحدة، سريعاً أغلق الباب من الداخل بالرزة والترباس الحديدى الطويل، عاد للجلوس متعباً ومنهكاً كأنه آت من حرب شرسة، تنهد بارتياح: أه يا رفاعى، عليك الأن أن تعطى نفسك حقها، بعيداً عن عيون الناس. زاحفاً يواصل الحياة فى الغرفة المغلقة، أشعل لمبة الجاز، وخفض سراجها للحد الأدنى، أشعل النار في الحطب، صب ابريق الماء في نصف الصفيحة الفارغة، ملأ قبضته من الملح، ورماه فى ماء الصفيحة، رص الأحجار الثلاثة حول النار، ووضع الصفيحة فوقها، تراجع للوراء وتناول القرطاس الكبير، وأفرغه فى الماعون دفعة واحدة: لينضج اللحم على مهل، ماذا ورائى؟ سحب الكشكولة الفخّار من تحت غطاء مهترئ، مسحها بطرف ثوبه، وأخرج رغيفين يابسين، ثم قام بتمزيقهما إلى قطع صغيرة، حتى كاد الوعاء يمتلئ: نعم، نعم أنت بحاجة إلى الغذاء يا رفاعى، المرض والعمر، من سيرعاك إن لم ترع نفسك؟ يدق الباب من الخارج بعنف: يابا يابا، يصرخ الأولاد كالمساعير. لن أرد عليهم، لن أرد، ماذا يريدون منى؟ يعلم الله أن هذه الطبخة على القد، ولا فائض فيها، لابد أن أمهم الظالمة هى من أوعزت لهم بالصراخ على الباب، لو كانت حرمة أصيلة لأخذتهم بعيداً عنى، وتركتنى وما أنا فيه، يعاود الباب الخبط: يابا يابا، نريد أن نقول لك شيئاً ونمضى. يبتسم فى استكانة: أولاد الكلب، يريدون أن يقولوا لى شيئاً! سبحان الله، منذ متى كان بيننا كلام؟ يظنون أن حيلتهم قد

تمر على أبو الجراير! هيهات، ثم أنني لا أريد أن أعرف شيئاً، إلى متى هذا العذاب يا رب؟ حتى اللقمة لا يعرف المرء كيف يتهنى بها؟ أوف.

بعد شئ من الوقت، أنزل الصفيحة من فوق النار، صبها كاملة فى الإناء، اقترب بأنفه الواسع من البخار المتصاعد منها: الله الله، صحتين على قلبك يا رفاعى، والله تستاهل.

بأصابعه الغليظة يفرك اللحم بالخبز المفتت، وبكف يده راح ينهل الوجبة، ويزدردها بتلذذ، سريعاً انتهى من تناول طعامه، لم يترك شيئاً بالماعون، مسح الاناء بطرف ثوبه، وأعاده إلى مكانه تحت الغطاء المهترئ، شرب كوزاً من الماء، وتجشأ: الحمد لله. تمدد على ظهره محدقاً فى سقف الغرفة الأسود من الدخان. يابا يابا، مازال المساعير يراقبون الباب، يشعر بالنعاس، بعد قليل سيغرق فى نوم هادئ ثقيل، وهم سيرجعون إلى غرفتهم، ويكفون عن النداء العقيم.

الحالم

-١-

أه صحيح، ماذا وراء هذا الماء يا خال؟ لم يزل السؤال يطن فى رأس الأشقر الحالم، كلما ذهب فى واحدة من الجرفات فى عرض البحر، ينظر الرجال إليه، هو يتساءل، وهم يتعجبون: الناس فى الناس، وابن الخايبة داير يسأل: ايش ورا البحر يا ناس، ايش بده يكون يا سالم؟ يا راجل فوق، شد معنا الغزل يا ولدى، شد الله يهديك، ويعود سالم الهيدانى إلى الشد معهم كما يريدون، هو قائد الجرفة لهذا الربع، العشرون عاماً، والتى هى كل عمره لم تمنع الرجال الأكبر سناً من أن يتركوا له زمام القيادة فى البحر: أصل هى مش بالسن يا خال، احنا مش فى الحكومة، والعارف أولى، لكنه حين يخرج من البحر، سيعود صبياً وينسى المهارة، يحن إلى أن يكون شيئاً غير الذى يراه، أو يحيط به فى شريط المواصى، رقيقاً خارج الماء يصير، يخفت الصوت ويلين، ولا يعود يجأر بالصراخ والأوامر، عيونه لا تكف عن البحث فى براح المدى، شعره الأصفر الغزير، عيونه الخضراء الثقيلة، إنها سطوة الجمال التى لفتت أنظار البنات إليه، هن اللواتى اخترعن الأسباب واختلقن المعاذير للاقتراب أو الاحتكاك به: ارفع الجرة على راسى يا سالم، ألن تذهب عصر الخميس إلى وادى الغف؟ بلى سيذهب إلى هناك، يعرف ما يدور تحت كثافة أشجار الاثل، وبواطن الكثبان العالية، حيث تذهب البنات لتملأ أجولتها من ورق الاثل المتساقط، والذى حين يجف يغدو هشيماً يصلح كحطب سريع الاشتعال يستخدمونه فى اشعال أفرانهم الطينية القديمة، فيما يذهب الرجال والأولاد لجلب الركائز من ذات الأشجار الضخمة.

هناك، بعيداً عن العرائش وسكانها، عن عيون الأهل والرقباء، القيود التى لا تزول ولا تحول، كأنها ميراث شرعى خالد: عيب يا ولد، اختشى يا بنت. يصير وادى الغف ميداناً لحرية أكبر، يتسع لقليل من الحرية، تلك التى تمر عبر

قوانين أشد قساوة من السلك الشائك، تخلع البنات غطاء رؤسهن الأسمر، دائماً هو أسمر، قيل أن اللون الأسمر يخفف قليلاً من حرارة الشمس القاتلة، وهى مناسبة أيضاً كى يرى الشباب والأولاد **المال** (النساء) على طبيعته، تخرج الكلمات هنا أكثر دفئاً وجرأة، خلف الكثبان عيون تراقب المسافات المحرّمة دائماً، فإذا رفع الشاب منهم جوالاً من الغف فوق رأس واحدة من البنات، فما المانع أن يترك يده لتهبط وتلامس الكتف العريض؟ صدفة بحتة، لكنها لا توجب الغضب ولا الإعتذار، أه، ما المانع حقاً؟ وإذا صرخت بنت حين تدخل فى قدمها العارية شوكة عاقول، ويجلس الولد واضعاً القدم بين كفيه، يُنقب عن الشوكة الخائنة بابرته وملقاطه، قد يرتعش قليلاً، قد يخفق القلب كشراع ضربته الريح فجأة، وقد يتمنى أن لا يجد الشوكة إلا بعد وقت طويل، ستقول له البنت حين يخرجها: تسلم يدّك يا ولد، ربما يجيبها: ولكن الظمأ يقتلنى، ستفطن إلى الإشارة، وترد: لكن ماءنا غال وعزيز، وطريق البئر معروف يا زين. طبعاً لن يحدث قط ذلك الرى الكامل للظمأ، لا يا قريبى، الزلات الكبيرة قد تحدث كل مائة عام مرة، الجدات يروين بعض الحكايا، والنهاية المحتومة لمثل هذه الزلات هي الدفن فى السراديب العميقة، ما فى هذار يا خال فى هذه الناحية!

ثم لماذا تقفز من السور والباب مفتوح؟ ما تستطيع أن تحله بيدك، ما الذى يضطرك لحله بأسنانك؟ يا سبحان الله، ليس أيسر من أن تطلب الزاد، فيناولونك الرغيف، شفت؟

أولاد وبنات العائلة للعائلة، هذا قانون، وماذا يكلف الأمر؟ حمل كارو من الركائز، مائة أو مائتى جريدة خضراء، تكفى لصنع عريش جديدة، والباقى ميسور.

عندما يذهب سالم إلى وادى الغف، ستمازحه البنات: ألا تريد يا سالم؟ قد يتسم تلك الابتسامة الذاهلة، ربما يهز الرأس الأشقر، ويتمادى فى اللهو: ماذا أريد؟ وتجيب البنات: ما يريده كل الرجال يا سالم، ولا أنت مش؟ ويضحكن بدلال، لقد كان بإمكانه أن يتحصل على أكثر مما يرضى به سواه من الشباب، غير أنه كان مشغول البال، ولا يهتم كثيراً بهذا الأمر، من أين جاءه هذا الهاجس؟ وماذا يريد أن يرى غير ما يراه فى المواصى؟ هو صياد بارع، يحصل على قوته بيسر وسهولة، يرغبه الأهل والأصدقاء، تهفو إليه البنات، لكن: ماذا وراء هذا الماء؟ حين توقف ذات ظهيرة فى قلب المارس الشرقى لأهله بين خطوط البطيخ الطويلة، واصل السير حتى توقف عند العلامة (هى سيارة جيش قديمة محترقة، لم يتبق فيها غير الهيكل الحديدى الصدئ، والعجلتان الخلفيتان من النصف الخلفى) جلس مستنداً بظهره إلى واحدة من هذه العجلات، تمددت الأسئلة فى الرأس الأشقر: كم هى المسافة التى تفصلك يا سالم عن البر الأخر؟ كم يوماً يكفى لأن تصل إلى هناك؟ والأهم من هذا كله، كيف ستصل إلى هناك؟ مركب العائلة؟ انها حيلتهم، ومصدر قوتهم، ثم ماذا سيقولون عليك؟ يعنى شارد وحرامى كمان! لا، لا ياعم، الصيت أطول من العمر، هذا إن كان قد تبقى لك عمر، من يدرى؟

يعرف ما تقوله الخالة تمام عن البحر وأنه غول كبير، بل يعرف أكثر من غيره، هو الذى رأى ماذا يفعل هذا الكاسر، أحيانا يقول: ما كنت أقدر على النوم من هول الكوابيس التى أرانى إياها، أحباء وخلان ورفاق مضغهم الغول بأسنانه العملاقة، منهم من هبط بالثقل إلى القاع، ولم يسمح له الغول بالصعود مرة أخرى، ومنهم من امتدت إليه الذراع العملاقة واقتنصته من فوق أطراف المركب، أعرف أن هذا الجوف الهائل لا يمتلئ ولا يشبع أبداً، كأنه

جوع إلهى مقدس، يا ساتر، كذلك الليل، الليل الأسود الحالك هناك، الليل فى البحر هو الليل بحق، هو المجهول التام حين يتجسد صوتاً وصورة ولوناً، والريح الثعبان، الريح التى لا يمكن الوثوق بها ساعة من زمن، أعرف، البحر جحيم متكامل الأوصاف، مثلما يكون من الوجه الأخر صفحة زرقاء صافية من أى كدر، شديد النعومة، فائق الجمال، فاتن ومثير، كأنه امرأة موهوبة تثير فى أعماقك مالا تعرف من طاقات ورغبات وجموح، البحر يا سالم، آمن تماماً لمن يجلس على الشاطئ وقدماه مغروستان فى الرمل، البحر، يا بوى عليك يا بحر.

لقد صارت العلامة هى مكانه الأثير، كلما عاد من رحلة صيد، أو أسعفه الوقت أن يكون بمفرده، هناك يجلس ويتواصل مع نفسه الحالمة، يغوص فى تفاصيل رحلة غامضة.

ذات نهار سيهبط إلى المدينة الكبيرة، ذهب إلى العم سيدان النورى، الحداد الأشهر فى سوق المدينة، يريد أن يصنع مرساة جديدة لمركب العائلة، جلس على كرسى من الخشب أمام الباب، تفوح رائحة الفحم الحجرى المحترق، ينفخ فيه الرجل بمنفاخ من الهواء، يشتعل الفحم حتى يصير أزرقاً صافياً كشهاب، تتوالى ضربات المطرقة الثقيلة على الحديد الذى صار لونه أحمراً شفقياً، تنبسط الكتلة تحت الضربات المتتالية، وتبدأ فى التشكل كما يريد لها العم سيدان، بدون مقدمات تقفز العلامة إلى رأس سالم، يقول: يا عم، ينادى على الرجل الذى يتوقف، وينصت له، عندى عجلتان فى سيارة قديمة، أريد أن أستخرجهما سالمتين، لن يتطرق للتفاصيل، لكن الرجل يهون عليه الأمر، يتفقان، يحمل سالم أشياؤه على عربة كارو، ويعود إلى المواصى ينتظر، وعما قريب سيكون سالم على طول شريط المواصى، أضحوكة لعائلات الربع.

جاء بالعجلات الكبيرة إلى عرائش أهله قرب الساحل، انخرط فى عمل لا أحد يعرف ما الهدف من وراءه، ويقولون: جايز يسلي حاله، دايما راسه طايرة. رقّع الثقوب الظاهرة فى العجلات بجلد سميك، أعاد طلائها وكسوتها بالبازلت السائل، أحاطها بعروق خشبية قوية، رصف قاعها بألواح من الخشب المنقوع فى الزيت والملح، صارت تبدو كقارب مستدير، قالوا: خليه يلعب. صنع شراعاً من قماش مطبوخ غليظ، ثبته بحبال الكتان والمرس الصلد على أوتاد غرزها على حواف العجلات، كل يوم صار يضيف شيئاً إلى لعبته، كما كانوا يسمونها، وحين يمر عليه أهل المواصى يمطرونه بالأسئلة والضحكات: سفينة نوح يا سالم؟ ومتى يا خال سيبدأ الطوفان؟ بالله عليك لا تنسى أن تأخذ معك حمارة أبيك الخائنة. يبتسم ولا يغضب، يقول فى نفسه: ماذا يعرفون؟ أنا أريد أن أعرف، لم يتبق عليّ سوى أن أجمع قلبى على الأمر، أتوكل على الله، واللى مكتوب يصير، ليس الأن بالطبع، لتكن فى بداية الربيع، مزاج البحر فى الربيع يكون أرحم، وعلى أى حال يا سالم، هى فركة كعب، ولابد أن يلقى كل خشم نصيبه، والساتر الله.

مع الشيخ سند

- ١ -

ايه يا سند، إن عشرون عاماً تكفى وتزيد لأن تترك الميرى، وتترك ترابه للذين يعشقون التمرغ فيه.

لقد آن الوقت يا أخى، هكذا كان يقول لكل من يناقشه أو يعترض عليه، محاولاً اثناؤه عما عزم عليه: لقد صار لى بيت كبير، وأسرة وعيال تحتاجنى، كما أنني صرت أضيق بأى نوع من التكليف، لقد كبرت على أن أسمع وأطيع فقط، لا، ليس كما يظن بعض الناس، لا هو الشبع، ولا رفصاً لنعمة الله، إنما لكل وقت آذان.

لقد كان ذلك الزمن كافياً أيضاً لأن يشترى دار أبيه كاملة من اخوته، ويعيد بناءها كما يهوى، وأن يضيف إلى حوزته عشرات من موارس الأرض فى شرق البلدة وغربها، أن يصنع اسماً يدق كالطبل فى أرجاء الجزيرة، لا يذكر إلا مقروناً بالجبروت والسطوة، لم يكن عنيفاً وقاسياً بطبعه، كانت الحياة أكثر عنفاً وقسوة، وكانت الناس والحياة على سواء، لا تخضع ولا تسلس القياد إلا للأكثر قدرة على إخضاعها، هو الذى أبصر ما يدور فى أعماقه بجلاء تام، فمضى غير عابئ بحصوات الطريق وأهوالها، قال فيما بعد: تحررت منذ البدء، فى طفولتى الباكرة، فى حياة الفاطم المجيدة، صفعنى أخ أكبر لي، بلا ذنب أو جريرة، قذفته بمنجل كان فى يدى، شج جبهته وأسال دمه، فررت بعدها، حتى كدت أعبر حدود فلسطين، لحقت بى أمى وأعادتنى، عنفتنى على فعلتى وهروبى، وأنا لذت بالصمت، غير أننى لم أشعر بالندم أبداً، وحتى يوم عقرنى جمل الفار، وكان ينتوى قتلى تحت قوائمه الضخمة، حاربته بيداى هاتان، أقتلعت عيناه، زحفت من تحت بطنه الثقيل، كان يأكلنى، وكنت أسدد بالباقى منى ضرباتى إليه، علقنى من قدمى فى الهواء، مضغ ساقى، وكانت عينى تصبو إلى سلاحى المعلق فى خرجه البعيد، لقد رأيت الموت حقاً، لكن

لم أقبل بالهزيمة، حاولت، وحاولت الحياة قدر ما أستطيع، حتى حين اختلط رمل البحر بدمي ولحمي، وكان الجمل قد صار أعمى بعد أن سحبت عيونه بأظافرى، كان يريد أن يبرك فوقى وينتهى، وفى اللحظة التى جثم فيها على ركبتى، مددت يدى إلى الخرج الذى صار قريباً منى، تركته يهنأ بقدمى دقيقة، تناولت بندقيتى، وصوبتها أسفل أذنه مباشرة، وأطلقت رصاصتى، كنت أوقن أنه محض كائن كبير فقط، وأنا كائن كبير أيضاً، هذه هى المسألة.

لقد قال أهل البلدة دائماً ما قالته الزوجة ذات يوم: جبار ولا يعرف الرحمة، يا أخى حتى على نفسه قاس وصعب. لكنه لن يتوقف عند ما يقوله الناس، ربما يفسر أحياناً هذا اللغط بقوله: لا والله يا جماعة الخير، لكن الناس هى التى صارت كالقش.

هذه النفس الكبيرة الواسعة، أين نبتت بالضبط؟ يقولون: علمته الحاجه أن يكتفى بنفسه، دربته الصحراء وقانونها الفظ أن يكون صلباً صبوراً، استخلص من سبره لأغوار الحياة، وحكاياها أن الرزق مقسوم ولا حيلة لأحد فيه، وأن العمر بيد الوهّاب وحده، فامتلأت الذات بيقين عارم، وما عاد لديه: لا خوف ولا يحزنون، يقول ما يريد أن يقول، ويفعل ما يريد أن يفعل، وعلى الأخرين حساب النتائج: يا أخى، هكذا أنا، وما يقرب من النار غير اللى محتاج دفا.

وفى ديوانــه المكــتظ بالغــادين والوافــدين، ألح عليــه جبريــل الــشيخ والحاضرين، أن يسرد تفاصيل حادثة القطار، فقال: حتى يود حادثة القطار، ما أمرني أحد أن أفعل ما فعلت، ولا كان لي عمل يحتم عليّ ذلك، لكن الله، الله يا جماعة الخير، أراد ذلك.

كنت جالساً وسط الرفاق والزملاء، على رصيف محطة القطار، وكنت لما أزل أتعافى من آثار حربى مع جمل الفار، استغرق علاج قدمى المفتتة عام

وشهور، جمعوا أعصابها واحداً واحداً، ربطوا أوردة، ووصلوا شرايين، ماكان أيامها تخدير وطب كما ترون اليوم، لكنى حظيت برعاية فائقة، حتى من الحاكم الانجليزى الثانى، الذى خلف القصير الأحمر ذو الغليون، يقولون لى: أننى بكيت مرة واحدة، مرة واحدة ليست بالكثير، السبب؟ لا يا جماعة الخير، ليس الوجع، عيب على الرجل أن يتوجع من قدر الله، لكنى كنت حينها غير متزوج، وخشيت أن أغادر الحياة دون أن أترك شيء، لكن الله غالب، ماذا كنت أقول لكم؟ أه، القطار يا جبريل.

كنت أجلس معهم لتمضية الوقت، قدمى ملفوفة بشاش كثيف، أتوكأ على عكازى، ولا أطيق حتى أن ألمس الأرض، صعد الزملاء من العسكر لتفتيش القطار القادم من فلسطين كالعادة، دقائق قليلة وعادوا يقولون: كله تمام، نظرت من غير قصد إلى رأس القطار، وقعت عينى على سائقه، شاهدت عين خائنة ومذعورة، قلت فى نفسى: لماذا يرتبك ويخاف إن كان سليماً ونظيفاً؟ قلت للزملاء ما شعرت به، أجابوا: ما فى شئ يا سند، توكل على الله، عاودت النظر للسائق، وقلت له: اهبط وتناول معنا كوباً من الشاى، اعتذر فى عجلة، وقال أنه مرتبط بمواعيد قيام ووصول، زادت ريبتى، توكأت على عصاى، وصعدت أول درجة من سلالم القطار الخاصة بغرفة القيادة، كنت بجلبابى الأبيض، وغطاء رأسى الخفيف، تناولت بيدى الأخرى سيخ الحديد من يد الزملاء، وحين وقفت أمام ماكينة الرأس من الداخل، غرست السيخ فى كتلة الفحم فاستقر بلا حراك، كما لو أنك تغرسه فى كيس تبن، أو جوال من القطن، وفى أقل من لحظة، انطلق الخاين برأس القطار، وأنا ما زلت واقفاً خلفه أمام ماكينة الاشتعال، ادينى عقلك يا خال، ماذا أفعل؟ والذين كانوا على الأرض، وشاهدوا الواقعة صاروا يصرخون: راح سند، وانطلقوا خلف القطار حفاة، وبلا سلاح، وقامت قيامة الناس ورائى.

كان يفصلني عن السائق حائط من زجاج، أقسمت عليه أن يتوقف، وبين الحين والآخر يلتفت إلىّ، ويواصل فراره المجنون، والعمر غالى يا خال، قلت: والله عيب يا سند، أن يصطاد السبع ديب، كبشت بيدى من الفحم المشتعل، وصرت أقذفه به، نار قايدة، لم أشعر بحرارتها، لم أشعر بقدمى المصابة، كل ما كان يشغلنى أن يتوقف القطار، أن لا يفر الخائن منتصراً، صار الوصول إليه هو كل مشتهاى. قد يسأل واحد: وليش كل هذا التعب؟ لأننى رأيت أن هذا هو الصواب، وأنه يجب عليّ أن أفعل ما فعلت.

واحدة من الجمرات الطائشة، كسرت الزجاج الفاصل بيننا، جمرة ثانية طالت وجهه، وأسالت دمه على عينيه، قبل ذلك بقليل، شوفوا الخاين يا ناس، أطلق على ماسورة الدخان، حتى صارت الغرفة كأنها ليل يحترق، وأنا كادت روحى أن تزهق من الدخان الأسود، غير ربك هو الساتر يا ولدى.

يقاطعه جبريل: ما سجله **الهريدى** عن الواقعة غير واف يا خال، والناس تذهب، والأشعار تبقى، وكان مما يحفظه جبريل عن هذه الواقعة من أشعار الهريدى:

سند يا ناس كاده طاح، فى أربع دقايق لبس رسمى وجاب سلاح
سند يا ناس والسواق، طلق عليه باب النفس كاد خلقه ضاق
سند يا ناس ما فى ظلامه نور، قدام بيت المفتش وقّف الوابور
عبداللطيف جاب الحشيش من الشام لأجل يتحين، قابله سند، غطسه غطس اللى راح ما بين
عبد اللطيف بيقول للمحامى دافع، اصفر وجهه، وقال الكدب مش نافع
عبد اللطيف يا ناس إن كان يتبرا، نظر الحكومة تاه بالمرة
عبد اللطيف بيقول يا ناس غيثونى، أنا شفت ملاك الموت بعيونى

و يتساءل سند: هل فعلت ما فعلت انتظاراً لشكر من أحد؟ قلت لكم من قبل، إن كان لابد من شكر دائم، فالله وحده هو المستحق، ورغماً عن ذلك استخرجوا الحشيش من رأس القطار، تكبد السائق حبساً طويلاً، وأنا نلت شريطاً كترقية، رغم أننى كنت يومها لا أعمل، وفى نقاهه، ربك أراد كل هذا.

فى ذلك الزمن الذى أمضاه هجاناً، منهمكاً فى المطاردة، وفرض سطوة القانون على الخارجين والعتاه، انهمك أخواله في زراعة السراديب والنخيل، وكذلك فعل أولاد خالته الشلبية، أبناء الحسانى.

و فى زيارته الأولى للشريط، بعد أن أصر على ترك الخدمة فى الحدود، وفشل كل المساعى التى بذلها الحاكم الانجليزى للإبقاء عليه، ارتدى الجلاليب الفاخرة، واقتنى الكثير من الدواب والابل، مارس التجارة وربح الكثير، ذهب إلى الشريط فأصابته الدهشة مما شاهدته عيناه، عمار واسع، خضرة وحدائق، لم يبق شاغراً سوى مارس الفاطم، وليس به سوى عدد قليل من النخلات، التقى فى المواصى بابن خالته الكبير، قال له سند: حرام والله أن يبقى مارس الفاطم شاغراً هكذا، أجابه الرجل: إن ما تراه يا ولد الخاله، استلزم سنوات من الكد والعمل، ما أبهظ العمل فى الرمال يا سند، أجاب سند: لا بأس، إن شاء الله يصير المارس كأخوانه، أخضراً ومعموراً، ضحك ابن خالته بسخرية، وقال ببساطته البلهاء: أنت تعرف يا سند، **البيض ما يقليه ضراط،** بل يحتاج سمن، ونار تحت السمن. كان هذا القول بمثابة تعريض أو محاولة لوأد الأمل الذى بدأ يتوالد فى روح سند، وحين واصل ولد الحسانى حديثه: مالك والزراعة يا ابن خالتى؟ أنت ابن حكومة، استرح، ونحن نزرع لك المارس مناصفة بيننا، هى اللحظة التى استبد الحنق فيها بالشيخ سند، وهى الكلمة

التى خرجت من فمه كالرصاصة: الليلة يا حميد، لا أرى أثر واحد منكم فى مارس الفاطم، الليلة.

لقد تم له ما أراد، رحل أولاد الحسانى عن المارس الشاغر، وهو ترك الحياة تجرى على هواها، وتفرغ للإقامة هناك، أمضى سنوات متلاحقة، صب المال الذى جمعه فى نزح الرمال، وحفر السراديب، وغرس النخيل، عمال بالعشرات، من أقاصى الصعيد، ونازحى فلسطين، بالابل والصناديق وعربات الكارو كان يعمل، بعربات الدوجوفيل، على قضبان صغيرة من أقصى الشرق، محمله بالرمال، حتى تفرغ حمولتها فى البحر، كثبان بارتفاع يفوق العشرون متراً، حملها بصبر وأمل، غرس **النخيل الحيانى، وبنات عيشه** (نوع من التمر) وبعض الفواكه، قال له الجد اسماعيل الشايب حين كان يمر عليه: ماذا تفعل يا سند؟ هل تبحث عن جرة الذهب التى خبأتها أمك فى الأرض، أم أنك ترغب يا ولدى فى دفن البحر بالرمال؟ والله لا يفعل ما تفعله غير مجنون، صحيح جبار وراسك ناشفة، الله معاك يا ولدى.

وتحت النخيل الذى بدا كصفوف العسكر، صفاً وراء صف، اختط له داراً واسعة وبناها، وصار ديوانه فيها، ملتقى القادمين من كل الجهات، وإلى يسار الدار الجديدة، اختط بقدمه على الأرض خطوطاً هنا وهناك، إنه مسجد **السعد**، وصارت صلاة الجمعه هناك حدثاً يحكى به فى المدينة، الولائم بعد الصلاة، فض النزاعات بعد عصر الجمعه، السامر ليلة الخميس، الاثنين يوم الحضرة والذكر، السبت سوق الجورة، صارت للأيام مع سند وظائف وأعمال، وصارت الحياة بجواره تاريخاً يستحق أن يقال، امتلأ هو فى البداية، وعاد ليملأ الحياة بالحياة.

حمدة

-١-

لا أحد بلا عمل، لكن العجائز والصبيان الصغار يقتربون من هذا الرخاء.

إلى أين يذهب الصبى؟ وليس فى ساحة المواصى غير الخاله تمام، تستند بظهرها النحيل إلى جذع شجرة جوز الهند العتيقة، والتى قالت عنها ذات يوم للصبى: إنها ذكر يا خالتى، منذ زرعها أخوالك، لم تطرح ثمرة، كأنهم زرعوها فقط لأجل أن تستظل خالتك تحت جريدها العريض، تعرف يا ولد، إنها مثل الرجال، لا تحبل ولا تلد. يمرغ الصبى رأسه فى الحجر العتيق، تعبث بأصابعها الجافة فى شعره، كأنها كانت تفلّيه، ورائحة الدخان الممزوج بروائح العجوة تزكم أنفه الصغير. يسألها الصبى بلا هدف: حمدة بنت أبو مطير يا خالة، لم تحبل، ولم تلد هى الأخرى، مثل هذه الشجرة. قالت تمام: النخيل وحده يا وليدى قد يحبل من الهواء حين يحمل اللقاح من الشجرة الذكر إلى الشجرة الأنثى، لكن النساء كالأرض تحتاج إلى من يحرثها ويغرس فيها البذور، وحمدة يا عين خالتك، مزيونة وقوية غير أن النصيب لم يأت بعد. لماذا لا يأتى النصيب يا خالة؟ يا ولدى لابد أن يأتى، النصيب هو الله، والله دائماً موجود، لكن أحياناً لا نرضى، ونعود للشكوى، والكلام الذى لا يقدم ولا يؤخر، تريد أن تعرف أين نصيب حمدة؟ إنه قريب منها ولكنها لا تريده، تريد نصيباً على هواها، لا أحد يأخذ كل ما يريد، ثم أنك فى النهاية لا تعرف مواطن الخير من الشر، الناس ما عندها إيمان، حمدة يا صغير، رايها فى راسها، لا تسمع من صغير أو كبير، وأنت حين ترى الجدار يميل، لا تسب الجدار، إبحث عن الأساس يا ولدى، ما فى شئ يزرع فى الهواء، وتواصل: أنت تعرف خالك أبو مطير، رجل هادئ، طيب ووديع، ورث عن أبيه السكينة والكثير من الصمت، قريب الدمعة، رهيف القلب، لا يعرف أن يغضب، ولا يقدر

أن يصرخ حتى فى واحدة من دوابه، لكن الدار يا وليدى تحتاج إلى وتد صلب، كوتد الخيمة تنشد إليه باقى الحبال، كما فى البحر لابد من ريس للجرفة، حتى فى زريبة الغنم لابد من تيس فحل، يمد ويهد (يقود وينكح) وخالك يا ولدي صوته واطي، ولكي يطب الميزان فإنه يحتاج إلى ثقل أكبر، فصارت الحرمة فى الدار صاحبة الدور والشور، مش عيب ولا حرام، شوف جدتك الفاطم، ايش سوت (فعلت) بالشوارب؟ لكن، لماذا تسأل عن حمدة؟ مالك وهذه الحاجات الغويطة؟ قال الصبى مجيباً: انها مزيونة يا خالة، وحين ترانى تأخذنى فى حضنها، تعطينى مما فى جيوبها من تمر وسكر نبات، بل قالت لى: حين تكبر وتصير قوياً، وتستطيع أن ترفعنى من الأرض، سأتزوجك. تضحك الخالة العجوز، تدس الجمرة فى غليونها، تنفث الدخان وتقول: تتجوزك؟ يا حسرتى يا خالة، ميت قرادة فى طيز الجمل والجمل ما يقول آخ. البنت الفايرة يا ولد، يعوزها بحر يلم ضلوعها، لكن حمدة تواصل رفض العرسان، تقول: البوار ولا جواز العار. تقول متنهدة: أريده كسالم ابن المجنونة، رهيف وجميل، وإن تعذر ذلك فليكن عفياً، رجلاً يملأ العين، كعوشى مثلاً، وإلا فأنا قادرة على الرغيف فى دار أبى.

هذا الشريط لن ينجب بنتاً بقدم ناعمة أو كفاً طرية، أو وجهاً لم تفعل به الشمس الأعاجيب، والجميلة منهم، ليست من صنع الأهل، أو هى حنكة صاحبتها، بل هى مجرد وهبة من الله وحسب، وسرعان ما يذوب كل ذلك فى عمل متواصل يتكفل بنهب الجمال ودفنه كما يدفنون بذورهم وفسائل نخيلهم فى سراديب الرمال.

فى الصباح الباكر، عند آذان الفجر ستقوم النساء لإشعال النار، خبز الفطائر على الصاج، إعداد الأفطار للرجال والأولاد، تعليف الماشية، تجهيز ما يلزم لأن يبدأ الرجال معاركهم اليومية فى ساحات الحياة: أين الشرخ يا

بنت؟ هاتى المطلاع (أداة لصعود النخيل) يا بنت، شدى على الركوبة (الدابة) أين حبال البير، ودلو الماء؟ كل ذلك وأولادها فى أقدامها يتعثرون، يستمر النداء: هاتى يا بنت، والبنت تصرخ فى أعماقها: الله يقطع البنت يوم ما تولدت، وحين يخلو البيت من الرجال، ستقوم هى بكل الأعباء، ستملأ مواعين المياه على رأسها، ستعجن وتخبز مئات الأرغفة لكل العائلة، ستباشر الزراعة فى السراديب، ستصعد للمشرات وتلم أقراص العجوة الجافة، تفرد الرطب الأخضر على سعف النخيل ليجف تحت الشمس: قل لى بالله عليك، ماذا يفعل الرجل؟ أه يتعب طول النهار كما يقولون، لكنه لا يرى شيئاً، ولا يعرف شيئاً عن البيت، ثم فى أخر الليل يقوم عليه حاله، يريد أن يطفئ جمرته، ليس مهماً إن كانت هى ترغب أم لا، مريضة أو صحيحة ، داهية تاخد الرجال، لا يشبعوا ولا يقنعوا، والله يا ولدى تقول النساء: حياة المرا زى الخرا، وتقول تمام: قلت لك من زمان، الرجال قساة، ما فى بزازهم لبن، وسالم الذى تحلم به حمدة يا خالتى لن يتزوج، اللهم ألطف برأسه يا رب، أما عوشى يا ولدى فلقد زوجناه من ابنة عمه، ثم أن هذا العوشى لا يعرف ما يتصارع عليه الرجال، لقد قال لنا حين خيرناه بين ابنتى عمه: أى واحدة منهما زينة، لا فرق عندى، لم يعرف له رأياً أو ميلاً لمرأة بعينها، ايش تفرق يا خال؟ يقول. كذلك طبعه فى الطعام، اللحم أو الرغيف الجاف يتساويان لديه، المهم أن تنام شبعان، والبنات يحدقن فى طوله وعرضه كأنهن حين يتزوجن منه لن يقوم من فوق ظهورهن، بنات عقولها فارغة، والله يا وليدى، لقد خلف عياله وهو يجرى، الأساس فى حياة العوشى هو البحر، وتريد الحق فى هذه البنت، تقصد حمدة، هى أيضاً ليست عاقلة، لماذا ترفض رجلاً كرحمى البكور؟ زين رجال ولا عيب فيه، أكبر فى السن قليلاً؟ ايش يعنى؟ المهم أن يكون قادراً على بل الريق، من أعلى ومن أسفل، فاهم يا قرد؟

أه تزوج مرتين، ولم ينجب، لكنه النصيب، أو هى تسمع هرج النسوان بأنه مثل نبات الرطريط (لا ينفع تبنى منه، ولا ينفع يسد خروق) عارف يا ولد، أقل عود يجرح العين، لكن حمدة مثل باقى أخوالك، دينها فى الحاجات الكبيرة، حتى وإن كانت فالصو!

لقد وقعت حمدة بين النارين، الأم القائدة والأب الساكن، وبين حيرة نفسها. ناهيك عن رط (ثرثرة) الناس: ليش وليش، وألف قصة، ووهم كاذب، وحمدة لن تحتاج إلى رأى الأب، هى تعرف أن رأى أبيها يرقد تحت ورك الأم، حمدة ذائعة الصيت فى البلدة، منذ يوم شجار عائلتها مع عائلة الدربانى، حين اختلف رجال العائلتين على حدود أرض فراغ، كانوا يعدونها لبناء منازل لهم، يومها دفع آل الدربانى نسائهم إلى الأرض محل النزاع، وذلك لوضع رجال البكيرى فى موقف الحياد، حيث أنهم لن يتعرضون للحريم تحت أى ظرف، ذهبت نساء الدربانى للأرض، حفروا الدوائر، ونصبوا العرائش، رصوا الطوب النى، وكأن الأرض قد بردت (صارت خالصة لهم) دون نزاع.

كان آل الدربانى يعرفون، أن لا قبل لهم، ولا حيلة فى رجال عائلة البكيرى، ففعلوا ما فعلوا، لعل وعسى، لكن أولاد الحرام، فطنوا للمصيدة، فتحدثوا معهم بذات اللغة، دفع آل البكيرى للساحة خيرة بناتهن، ساروا نحو الأرض، كأنهن نياق تتهدل على الطريق، فى المقدمة كانت حمدة، عاصبة رأسها بشاشة سوداء، تلف ثوبها على منتصف خصرها، حتى بانت السمانتان المصبوبتان كقالب من رخام، وحين شاهد الأولاد بناتهن، يندفعن فى درب الجامع، متجهات للبحر، حدقوا بجوع كافر فى الأرداف المهتزة، والسيقان المصقولة، تدب على الأرض، كما لو كن يرقصن الدبكة فى ساحة عرس، حتى أن الرجال الكبار، نهروا الأولاد الهائجين فى غضب: احنا فى الهم، وأنتوا فى الشرمطة.

عما قليل ستلتصق الأجساد اللدنة ببعضها، شعور ستتهدل على الأكتاف، أظافر كحد الموس ستنغرس فى الصدور والظهور، صرخات وسباب، ستتمزق أثواب، وتتعرى أجساد، وتتعفر رؤوس بالتراب، وتنغرس أسنان صلبة فى أى موضع يصادفها، وفى قلب الغبار، وتناقض الأصوات، سيعلو صوت حمدة: عليهم يا بنات، اليوم يوم القوية، والهايفة والردية ما ينوبها مناب.

كانت كالمسعورة، تضرب وتخمش وتصيح بالأخريات، وحين لاح لها أن الأمر قد حسم لصالحها، صرخت فى أهلها: روحوهم عرايا. حاولت بنات الدربانى الفرار، سدوا عليهم المنافذ، وتركوا لهن فرجة من ناحية البحر، سدتها حمدة بجبروت الرغبة فى الإذلال، ما إن تصل إليها واحدة من بنات الدربانى حتى تدفعها للأرض، وتبرك فوق بطنها، سريعاً تمتد الكف القوية إلى سروال البنت الباركة تحتها، تشده بغضب وعزم، حتى يخرج فى يدها، سليماً أو ممزقاً، ثم تدفعها إلى عرض الشارع مبهوتة من القوة الفاجرة، واللحم الذى صار يرتعش عارياً تحت نسمات الريح.

ارتفعت زغاريد بنات البكيرى، لم تفرغ الساحة حتى جاء رجال غرباء، تكفلوا بحل النزاع فى مجلس عرف بديوان الشيخ سند، وفى ذات مساء اليوم، كان رجال العائلتين ونساءهم، فى ديوان الشيخ سند، وكالعادة امتنع الرجال عن الخوض فيما جرى صباح اليوم بين نساء العائلتين، لأن ما تقوله وتفعله الحريم لا عليه عرك ولا درك، وقالوا قولتهم المأثورة: يا شيخ، اهن نساء، وما باليد حيلة، وعلى ذلك قضى الشيخ سند بين رجال العائلتين، ألزم الطرفان بحكمة، وغلّظ المواثيق عليهم، قام الرجال، وقبل بعضهم البعض، عن قناعة، أو انتظاراً لفرصة قادمة، وانصرفوا إلى عرائشهم.

لقد كانت حمدة بالجوار، أرسل إليها الشيخ سند، وأتى بها، يريد أن يتعرف على تفاصيل ما جرى، من واحدة كانت فى منتصف الحدث هناك، كانت مزهوة وفائرة، قالت: العايب يا خال، بده (يلزمه) فاجر، وحياة هيبتك يا خال، ثلاثة عشر لباس، التى خلعناها عن طياز بنات الدربانى، روّحوا يا خال، والهوا يضرب بحرى. قال لها الشيخ سند: اياكى والعيب يا حمدة، قالت بحسم: العيب يا خال، أن تنام عن حقك، والقوة مليحة، والضعيف غلبان.

-٢-

ماذا تعرف بنات المواصى عن الحب؟ حتى يفيض الحديث ويطول.

لماذا لا تقبل حمدة برحمى البكور؟ صحيح لماذا؟ قد يقولون: يمكن شايفه ليها شوفة، يمكن القلب سارح فى مطارح بعيدة، والأم لا تشك لحظة فى سلوك البنت: بنتى راجل، واللى عايز يشوف، يجيب نبوته. الأب كعادته غارق فى السكون، وبحار الطيبة الصامتة، لكن الناس يا حمدة، لا تكف عن الكلام، سترد بامتلاء: الناس؟ وتضرب بيدها على صدرها غاضبة، الناس منذ آدم وحتى اليوم لا شغلة ولا مشغلة غير الكلام، فإن كان المتحدث إليها بنت أو امرأة، أجابت على الفور: كلام الناس فى طيزى، أما إن كان المتحدث من الرجال أو الغرباء، فإنها تقول متأدبة: ايش ياخد الريح من البلاط!

ذهبت لأمها حائرة: ما رأيك؟ أجابت الأم: لست صغيرة حتى أختار لك، وأخاف غداً أن تقولى: أمى السبب، لا يا بنتى، أنت حرة، الرجل يا حمدة زين، هذا ما نراه ونسمعه، لكن المستور يا بنتى لا يعرفه إلا الله. هذا الجواب كان كافياً لأن ترضى أى بنت فى شريط المواصى بالرجل الزين، لكن هذا الكلام ذاته لا يقنع حمدة، كيف هو رجل زين، وقد طلق امرأتان من قبل؟ لماذا؟ هل الإنجاب هو السبب؟ وهل العيب فيه أم فيهن؟ ثم ما المستور الذى يخفى ولا يعلمه إلا الله؟ رجل وامرأة، ما المستور بينهما يا خلق؟ هذا الجمل وهذه النخلة.

ستذهب إلى نسائه اللاتى طلقهن، وتسألهن بإلحاح عن سبب الفراق، لكنهن سيلزمن الصمت المريب، كعادة الأصول البالية، ستقول فى أعماقها: يا بنات الكلب، قولوا الحقيقة، أم تريدون لى الغرق مثلما غرقتن من قبل؟ عادت لأمها قائلة: إنهن لا ينطقن يا أمى سوى بكلمة " نصيب " تفكر بطريقتها الحرة: لماذا لا يكون ليس له فى النساء؟ ليش لأ؟ ياما فى الدنيا جمال فاضية،

ليس لها غير الشيل والحط، وتصب جام غضبها على اللواتى عرفنه وعاشرنه، ثم التزمن بالصمت المطبق، لأن ذلك هو الأصول، تبصق على الأرض، وتقول: أى أصول تمنعنى أن أعرف الحقيقة؟ الأصول يا ناس، أن أعيش على نور، آخذ حقى كاملاً من كل شئ، أه بصريح العبارة، كل شئ، ما فى حياء فى هذه الأمور، واللى يشرب الخازوق معذور إن صرخ، منذ البداية لا أريد أن أصرخ من الخازوق، لا تتزوج البنت، وتترك دار أبيها وحضن أمها، لأنها جائعة للخبز، أو بحاجة لثوب جديد، لا يا خال، بل تذهب إلى هناك، لتشبع، أه تشبع بلا خجل، من كل شئ، هل تريد تفسيراً أكثر؟

منذ الأن، سترصد خطواته البطيئة، وهو ذاهب إلى البحر ليغتسل ويتوضأ، تتستر خلف جذع نخلة عريض، هو يهبط للماء عارياً، تحدق فى الرجل العارى، وهو يستدير يمنة ويسرة، خشية أن يراه الغرباء، وكأنه كان يعرض بضاعته على تاجر وحيد يتخفى خلف الجذع، تواصل التحديق والابتسام: ما شاء الله عليه، وافى زى العير، يملا عين القارحة، وحين ترجع صاعدة الكثيب الرملى، تزداد حيرتها فى أمر الرجل، ما السبب إذن يا حمدة؟ لا أحد يشفى غليلى بإجابة وافية، والخنزير لا يتكلم، يريد أن يتزوج وحسب، تتساءل ثانية: قد يكون عاجزاً عن الولوج فى البئر؟ما الذى يخجل فى أمر الله؟ ربما هذا الحمار يقول لنفسه: ما دامت المرأة تأكل وتشرب ويسترها ثوبها وعريشتها، فماذا تريد أكثر؟ هل هذا الأمر ضرورى إلى هذا الحد؟

سيقول أهل الشريط: أن السؤال عن هذه الأمور عيب، وقلة تربية. لكن حمدة تقول: حين أصير فى عمر خالتى تمام، سأقبل هذه الأصول التى يتحدثون عنها، أما الأن، فلا.

طاردت السؤال المستور بشغف، راقبت الرجل الغافل حتى دخل الخلاء، خلف أشجار الأرطة الكثيفة، حين انتهى وعاد قاصداً الزاوية للصلاة،

اندفعت بمحاذاة الأشجار، حتى وقفت على موضعه الذى كان فيه تواً، قرفصت على كعبيها، وحدقت طويلاً فى الأرض، هزت رأسها برضا وارتياح، كمن عثر على ضالته، عادت من الطريق الذى جاءت منه، حتى دخلت على أمها فى العريشة، قالت بصوت واضح للأم: خلاص يامه، فضوها سيرة، قولوا للرجل يربط حصانه بعيداً عن الدار، تساءلت الأم مندهشة: خير يا بنت؟ وهى أجابت بثقة:

كيل السرايا لا يطابق كيل القرايا، وبين الشارى والبايع يفتح الله. عاودت الأم الاستفسار: ماذا تقولين؟ أجابت: من يفتش الرغيف لا يأكله، وأنا فتشت ولا أريد هذه الوليمة، ماذا تقولين يا أمى فى الرجل الذى لا يجرح بوله الأرض؟ أيمكن لهذا الرجل أن يخترق جدار؟ والله يا حنونة، كان مثل بول الطفل على أكثر تقدير، قطرات ندى نثرتها يد مرتعشة فوق الرمل، يا شيخه والله نوم الفردانى أرحم. قطعت العجوز سخرية البنت قائلة: بدلاً من هذا، لنقل النصيب. أجابت حمدة، وهى تشد الغطاء على رأسها: قولوا ما شئتم، لكن يفتح الله.

الحربة ١

-١-

كان موسم صيد السمان قد بدأ للتو، نصبت الأهالى على طول شريط الساحل ركائزها وعلّقت شباكها، أقاموا كمائن مراقبة الغزل من الجريد الجاف والسبط، الأيام تجرى وكله من العمر محسوب كما يقولون.

بعد أيام على الأكثر ستظهر بشائر النيروز (أول ثمرات البلح عند نضجه) وهى أول ما يكون ظهورها فى صفحة المواصى الشرقية، الأكثر تعرضاً لحرارة الشمس اللافحة، سيقطفون تلك البشائر ويدسونها فى جيوب ثيابهم حتى يذهبون ويصلون بها إلى الشيوخ والعجائز من الأهل فيكونون أول من يتذوقها: أه يا بركة، أول التمار يطوّل فى الأعمار، والله يا أهل الخير، ما يطول ولا يقصر فى الأعمار غير رازقها، لكن أصحاب العقول فى راحة.

فى هذه الأيام يشم الناس روائح أخبار غريبة، فى أغلب الأحيان ستأتى من محل التموين الخاص بآل الرفاعى فى البلدة الصغيرة، والذى يتولاه الأستاذ، هو الوحيد الذى يقرأ ويكتب بينهم، وزيادة فى التفرد عنهم يستمع إلى الراديو، ويفهم ما يقولونه فيه، إذا كان مزاج الأستاذ رائقاً فربما يسمح لمرتادى المحل ومن حوله بمشاركته فى الاستماع إلى الراديو، هم الحريصون على حصتهم من الطحين حرصهم على أرواحهم ثم يأتى فى الأهمية بعد ذلك كل شئ، سكر وشاى (خمر الغلابة) وزيت طبيخ إن كان متوفراً، يقولون: ما دام برميل الطحين مليان فلا خوف ولا هم إن شاء الله، الباقى ميسور ومقدور عليه (ايش ما كان ينفع غموس) سيحدقون فى الأستاذ بعيون نصف كليلة، وأفواه فارغة: ها يا أستاذ، ماذا تقول الأخبار؟ وبعد أن يجلس الأستاذ أولاً على كرسى مصنوع من رقائق الجريد مغطى بنصف بطانية سوداء قديمة، لابد أن يتوقف عن العمل الآن، ينحى قلم الكوبيا الأزرق جانب الدفاتر الطويلة، يكف عن الوزن والحساب الجديد الذى اخترعه تسهيلاً للمعاملات، ففى

هذا الحساب الجديد لا مجال للكسور أو الاعتداد بأنصاف الأرقام، فإذا كان المطلوب كثمن لحصة تموين أحدهم هو جنيهان وستون قرشاً، سيقول الأستاذ حاسماً: قول ثلاثة، وإذا كان الكسر أقل من خمسون سيقول: قول اتنين، ويبقى عليك واحد. سيجلس الناس أمامه على مصطبة الدكان كالتلاميذ الحزانى أو كمن ينتظر صدقة من ثرى الحى أو يتلهف الحصول على خبر عن غائب: ها يا أستاذ؟ خير إن شاء الله؟ يتمهل فى الإجابة، تخرج الكلمات من فمه بطيئة ومدغومة وزاحفة: والله الدنيا مقلوبة: يقول ثم يعود لصمته الوقور، ليش يا أستاذ؟ ما الذى قلبها يا بركة؟ استر يا ستّار، وهو يعود للإدلاء بالتصريحات: الريس قرر أن يأخذ الكنال من الانجليز. سيقولون له: ايش فيها؟ ليأخذ ما يريد أو يترك ما يشاء، ما دخلنا بهذا الموضوع؟ يعتدل فى جلسته مائلا للأمام، يقطب الجبين الأحمر: ايش، أنتم بهايم؟ ستكون حروب ونار وخراب ديار، يندهشون من قلق الأستاذ الذى يرون أنه بلا معنى، سيحملون متاعهم من التموين ومعهم الأنباء السيئة إلى شريط المواصى وأهلها الغائبون عن مجرى الأحداث. هذا بالضبط ما سيدفع الشيخ سند لشراء راديو يعمل بالبطارية الجافة، والذى سيظل مفتوحاً من بعد صلاة العشاء حتى قيام الرجال من الديوان، وذهابهم إلى عرائشهم للنوم: يمكن صحيح!

فى خريف ذلك العام ٥٦ كان الشيخ سند يواصل أعمال الحفر والغرس، لقد انتهى من تسوية وزراعة المارس القبلى كاملاً، واستدار ناحية الشرق ليغرس ما تبقى من أرض الفاطم، لذا كان مقيماً هناك بكامل أسرته وعماله ودوابه فى المنزل الطينى على ساحل البحر، ولكن الراديو لا يكف عن الصراخ، أغنيات الحرب تتوالى: هنحارب، هنحارب، ولكنهم لا يصدقون الراديو، ولا الأغنيات: القول شيئ، والفعل شئ أخر.

ربما هذه الحرب التى تسيل فى الأغنيات، كالحرب التى تدور يوميا بين الأخين الشقيقين: **مريشد، والترس،** تلك الحرب التى لم تتوقف يوماً دون أن يعرف أحد فى المدينة سبباً واحداً وجيهاً لها.

لقد سأل الشيخ سند الترس فى واحدة من المعارك اليومية: لماذا كل هذا العداء مع أخيك؟ يومها تحير الرجل فى الجواب، لكنه قال أخيراً: بصراحة يا خال، أنا أشتهى العراك معه. لينفجر الشيخ بالضحك والحيرة معاً. هكذا تبدأ الحروب، كلام يجر كلام، مثل حال الأخوين الغريبين، يظلا يتراشقان طوال النهار بالسباب والتهديد، يبدأ أحدهما المعركة قائلاً لأخيه: والله غير أسوى عظامك مكاحل، فيرد الثانى هائجاً: طيط يا مريشد، قولك زي بولك. حتى يكاد صوتهما يبح من كثرة الصياح على بعضهما، وحين يجتمع الناس على صراخهم، يبدأ أحدهم فى موعظة كل يوم: يا ناس حرام عليكم، ما فى مسلمين؟ ما فى قلوبكم رحمة، أم أنكم تشتهون أن نتقاتل حتى يسيل دمنا ويغرق البحر؟ عجايب يا ناس. سيتدخل المسلمين لحقن الدماء بين الأخوين، ويذهب بأحدهما بعيداً، ويترك الآخر شارحاً للناس ما كان ينتوى فعله بأخيه، لو لم يأخذه الناس بعيداً.

العجيب فى الأمر أنهما لا يسكنان إلا متجاورين، يأكلان معاً، أهو الحب المقلوب؟ أم هى الحرب التى تطحن العظام والروح دون أن تراق نقطة دم واحدة. يقولون: إن كانت الحرب التى يخوفوننا بها فى الراديو، مثل هذه الحرب فلا بأس بها على الإطلاق.

لكن الأمر يمضى متسارعاً، تتدفق على الشريط أرتال السيارات والجنود، الحركة فى المدينة أكثر سرعة وتوتراً، الراديو يهدد الأعداء بالثبور وعظائم الأمور، سنقاتل، سنقاتل.

يا جماعة، ما الذى جرى للناس؟ سيمر أبو الجراير على الشريط فى هذا المناخ المشتعل، سيجلس فى الديوان صامتاً كالعادة فى إنتظار وليمة العشاء، سيبادره أحد الجالسين ممازحاً: ستقاتل يا خال؟ يرفع رأسه العارى ببطء ويجيب: أقاتل من؟ أنا لا أقاتل أحداً أبداً، ويقولون له: ولكن الحكومة ستقاتل يا خال. يرد هادئاً: مالى ومال الحكومة، الساتر الله.

كل الذين كانوا هناك تفرقوا أو رحلوا بطريقة أو بأخرى. لكن ظلت الهيشة (عدد كبير من فسائل النخيل الصغيرة تنمو ملتصقة بالجذع الأم) شاهد حى لا يموت حتى يومنا هذا.

كان الشيخ محمد الحفّار الأعمى وأبو ليلة الراعى وباقى مجموعة العمال فى صبيحة ذلك اليوم يعدون لأنفسهم إفطاراً وشاياً بجوار الهيشة الوارفة قبل أن يقوموا لمواصلة أعمالهم فى السرداب الشمالى، فجأة أزعجهم صوت زئير يمزق سكون السماء فوق رؤوسهم، التصقوا بالأرض ونظروا بعيونهم المرتعبة فى اتجاه السماء التى كانت صافية منذ لحظات فإذا بصف من أربع طائرات على مسافة قريبة من الأرض تمرق كالبرق متجهة ناحية الغرب، حين نأى الصوت الهادر عن عيونهم وآذانهم، اعتدلوا فى مجلسهم متسائلين: ما الذى يجرى؟ ماذا تكون هذه الطائرات؟ قال أبو ليلة: هى طائرات يهود، أنا فلسطينى وأعرف هذه النجمة القذرة التى تلمع على ذيل الطائرة. ارتعب الشيخ محمد قائلاً: لن أواصل العمل، هيا لنعود إلى بيوتنا، وقبل أن يتفقوا على رأى جاء صف آخر من الطائرات فعاود الجميع الإرتماء على الأرض ومنهم من دس جسده فى قلب الهيشة غير عابئ بوخز الجريد والشوك. هذه المرة لم تكتف الطائرات بالمرور فوقهم فحسب أو خرق طبلات آذانهم بل أهدتهم أيضاً بعض زخات رصاص سريعة ذهب بعضها فى الرمال القريبة والأخر فى جذوع النخيل فيما صادفت بعض الشظايا معاولهم وأدوات حفرهم، قال الشيخ الأعمى: لا يا

خوى، يا روح ما بعدك روح، لم يستدل على عصاه فوضع ثوبه بين أسنانه ولزم ساحل البحر متجهاً إلى داره فى البلدة وهو يردد: إن كان لابد من موت فلنمت وسط الناس، على أقل تقدير يا أخى سنجد من يجهزنا ويدفننا، لكن هذه الموتة هنا؟ أه لن يفعل اليهود بأجسادنا شئ لكن الكلاب ستفعل، أدفع من عرقى أجر يوم يا جماعة وأفهم لماذا هذا العراك؟ وفى دقائق قليلة احتمل الشيخ سند على ظهره الصبى الصغير الذى كان يرافقه وعاد للدار على وجه السرعة، اجتمع حوله أهل العرائش: ما الذى يجرى يا شيخ؟ ماذا يقول الراديو؟ يقول أنها الحرب. لم يعرفوا ماذا يفعلون؟ سويعات ويبصرون على الساحل صفوفاً متراصة من الجنود يحملون بنادقهم ويحثون السير فى اتجاه الغرب، فكروا يقيناً عند هؤلاء العسكر سنجد الخبر الصحيح. قام الشيخ سند وخلفه جمع من أهل المواصى المرتعبون الحائرون ليسألوا العسكر عن حقيقة الأمر، صرخ الضابط الأول فيهم: ابتعدوا عن طريقى، تركوه وذهبوا لضابط خلفه كان أكثر هدوءاً وتماسكاً، قال للشيخ: اننا ننسحب إلى غرب القناة، واليهود كما قيل لنا على مشارف **القرادى،** أجابوا بذهول: تقول القرادى؟ وعاد الناس إلى الخوف والحيرة، أنهم يعرفون أنه لا يفصل بينهم وبين القرادى سوى ساعة سير على الأقدام، نصحهم الضابط بالابتعاد عن هذه المنطقة.

لا وقت يسمح بالشرح للضابط: لماذا هم هنا؟ لأن حياتهم هنا، وأنهم لا يعرفون الذهاب إلى جهة أخرى لأنه لا جهة أخرى لديهم. قال الشيخ سند للناس: هيا احملوا أولادكم، وما تقدرون على حمله وعودوا إلى منازلكم، فحين ترحل الحكومة هكذا وينسحب العسكر كما ترون، لابد لنا أن نذهب أيضاً، لن نذهب بعيداً، لعنة الله على الحرب، وعلى الذين إذا فرضت عليهم الحرب، لا يحاربون.

فى منتصف الظهيرة سيرحلون، لن يكون الوقت كافياً لأن يأخذوا معهم كل متاعهم، كمن يفر من حريق لا تعنيه إلا سلامته ونجاته بنفسه دون الإلتفات إلى شئ أخر، حملوا ما قدروا أن يحملوه على ظهورهم، وعلى ظهور دوابهم، فيما سيدفنون فى الأرض أوانيهم النحاسية وأدوات حياتهم البسيطة، عبأوا الأغطية والمفروشات فى أجولة ودفنوها أيضاً، قالوا: الأرض لا تخبر عما فى باطنها، وهى أيام ونعود.

أهذه هى الحرب؟ تساءلت العمة العجوز، وحين أركبوها فوق ظهر حمار لهم، لأنها غير قادرة على السير، ناولتها احدى النساء الهاربات وليدتها، لتحملها بين يديها وهى جالسة فوق ظهر الحمار، لكن الوليدة لا تكف عن الصراخ، فقذفتها العمة إلى ساحل الماء: فى ستين داهية، على ماذا تصرخين يا بنت الكلب؟ ولما عادت الأم لتتناول وليدتها، نصحتها العمة: اتركيها تموت، ونحن أيضاً سنموت، وإن كتب الله لك عمر جديد فستأتين بغيرها. فيما تذكر الصبى الصغير أنهم تركوا خلفهم الماشية محبوسة فى حوش الدار، عاد وفتح لها الباب فانطلقت فى اثره لتلحق بالركب الهارب.

تحول البحر بماءه ورماله وسماءه إلى عرس من نار، ويكاد الصبى يبتسم لهذا المهرجان الجديد.

أيقظ الركب عوشى من قيلولته بجوار البحر: قم، قم يا غافل، الحرب قامت. تأخذه الدهشة ويسأل: مالى والحرب، هيا يا عوشى ستموت هنا، يعاود السؤال الأخرق: ليش؟ انهم اليهود يا عوشى، ويرد مندهشاً: حتى إن كانوا قرود، عيب أن نرحل من بيوتنا، هاتى النبوت يا بنت! يجذبونه عنوة ويمضون به، الخالة تمام حملوها على واحدة من الدواب وهى تسب وتلعن، ليس بسبب الحرب ولكن لأن الغليون الأثرى قد سقط إلى حيث لا تعلم

وهى لا تعرف كيف ستكون الحياة بدونه: كله كوم يا خالتى وغليون الشوم كوم تانى.

أمام سرداب الغنام سيجدون الخال أبو الجراير يتساءل عن أقرب جرفة فى الشريط، يقولون له: لا جرفات الأن يا رفاعى. هو لا يدرك ما يحدث، وعلى العموم فهو لا يصدق ما يقوله الناس، ينتوى مواصلة السير إلى الشرق، لن تلقى غير اليهود يا حزين. يهز رأسه، ولا يعرف عن أى يهود يتحدثون، سينهره الشيخ سند آمراً إياه بالعودة لداره، وهو يتمتم فى حنق: لا أحد يحب الخير لى، كأننى أمشى على قلوبهم، يرددون فى وجهى، حرب، حرب، ماذا يعنى حرب؟ أن أجلس فى الدار كالحرمة؟

بعد جهد ورعب دخلوا البلدة الصغيرة، وفى منتصف الشارع الرئيسى تحلقوا حول دكان الأستاذ، كان قد أغلق أبواب المحل، وجلس على العتبات الاسمنتية من الخارج، قال لهم: قلت لكم من قبل، الدنيا مقلوبة، وهم يسألونه بإلحاح: ماذا يقول الراديو يا أستاذ؟ يرد بامتعاض: يقول هنحارب/ هنحارب، يتواصلون فى حواره الذى بدا لهم بلا معنى: من الذى سوف يحارب يا أستاذ؟ الحكومة ستحارب، لقد ذهبت الحكومة يا أستاذ، وذهب العسكر، يندفع فى الجواب الحاسم: إذن ستحاربون أنتم، ويرددون بلا تفكير: بماذا يا أستاذ؟ يمكن بطيازنا. يواصل انفعاله عليهم: تقول الحكومة .... ولا يتركونه يكمل كلماته: حكومة ايش يا أستاذ، مافى حكومة، ما فى شئ، خلاص، هل عندك طحين كفاية؟ يرد بغضب: الحرب تشتعل، ولا تفكرون إلا فى بطونكم؟ هذا عيب والله، ألا تفهمون؟

تجرأ أحدهم وقال: الأستاذ يصدق الراديو، ويكذب ما رأته عيوننا، الراديو يا أستاذ يكذب، ولا يشاهد ما يجرى على البحر، وحياة رحمة أبوك

أغلقه، أو إذا كنت تعرف أن تبلغه فقل له يا أستاذ، قل له على عهدتى: أن اليهود وصلوا القرادى!

فى ذلك الوقت كان اليهود كأنهم فيلق من المشردين، ملابسهم الرثة، طعامهم المعلّب الشحيح، توجسهم الدائم من أدنى شئ وأهونه، كانوا يهوداً بحق، وقال الناس بعد أن ولجوا إلى بيوتهم، وأغلقوا عليهم الأبواب: نحن لم نر حرباً، رأينا اليهود فقط. فيما سيواصل الراديو الحرب بمفرده من بعيد، وصار الناس يشاهدون فى المدينة نتائج الحرب وحدها، ها هم يحرثون الأسفلت الأسود، يقتحمون البيوت فى أى وقت وينتزعون منها الرجال، ويرمون بهم فى سجن البلدة، يطلقون النار على البسطاء وعابرى الدروب، أولئك الذين لا يعرفون ما معنى: حظر التجول، مات حسين الخوّار، مات محمد العامرة لأنه لم يمتثل لأمر الجندى بالتوقف، وقال: لماذا أتوقف؟ وكان خفيف العقل لا يأبه لأحد، مات كلب الشيخ سند المرقش بين السواد والبياض، رحل ابن العرّاد لأنهم أنزلوه فى بركة ماء باردة، وهو شيخ مصاب بداء الصدر، جاءوا إلى منزل الشيخ سند ليلاً وأخذوه وسط ذهول ورعب الأسرة والأطفال، مكث بالسجن رهن التحقيق والتعذيب أكثر من عشرين يوماً، كانت تهمته أنه يساعد فى توصيل الجنود إلى شاطئ القناة، فيما بعد كان يقول: أولادنا، ماذا كان بوسعى أن أفعل غير ما فعلت؟ فى واحدة من تلك المرات، شاهد منهم رجلاً يختبئ فى سراديب المواصى، كان معه رجلان آخران يقومان على خدمته والعناية به، كان يبدو مميزاً وهاماً، قال له الرجلان: إنه اللواء أحمد، لكن الرجل تدخل غاضباً فى الحديث، واحتد قائلاً: قلت لكم ألف مرة، بلاش لواء وزفت الطين، اسمى أحمد، أحمد بس، مفهوم؟ أم تريدون لى الموت؟ وهو خاطب الشيخ سند برقة واحترام: أرجوك يا شيخ، هذا هو اسمى، وهو يكفى تماماً. يومها أخذهم الشيخ إلى داره، كساهم من ملابسه وحطّات

الرأس الخاصة به وعقالاته السوداء، اكترى لهم ثلاثة جمال ودليل من البدو، قادهم حتى أوصلهم إلى شاطئ القناة سالمين، وفى محبسه أنكر الشيخ سند ما نسبه إليه اليهود، طلب أن يرى ولده الأصغر، ذهب جندى منهم للبيت، كان من أصل يمني، ويدعى: هندي، أبلغ العائلة بمطلب الشيخ فى رؤية الصبى الصغير، لكن الأم قبضت على الصبى فى صدرها، قالت: لا لن أتركه لحظة، من أدراني؟ وحين أصر الجندى على أخذ الصبى، رافقته العمة العزوز إلى المحبس، احتضن الشيخ ولده بحنان عارم، وشاهد الصبى ذقن الشيخ التى طالت، لكن بعد يومين من ذلك، أطلقوا صراحه على شريطة أن يقوم بإحضار من يراه من الجنود الهاربين والمختبئين فى دهاليز الصحراء.

خرج مساء ليلة الخميس، رفض أن يتذوق حتى العشاء، تعلل بأن بطنه ليست على ما يرام، وفجر الجمعه كان قد عبر إلى الشاطئ الآخر من القناة تاركاً كل الحياة ومن فيها أمانة فى يد من لا تضيع عنده الأمانات، وفى البر الغربى من القناة التقاه رجال كرماء وأوفياء، أحسنوا وفادته ولقاؤه، شاهد هناك بمحض الصدفة الرجل الذى التقاه من قبل مختبئاً فى شريط المواصى، كان يرتدى بزة عسكرية نظيفة، عدد كثير من الجنود يلتف حول الرجل، تذكر المرة الأولى التى شاهده فيها، قال فى نفسه: عرفت حين رأيته لأول مرة أنه مميزاً وهاماً، سار نحوه ليصافحه، ربما كان الرجل منهمكاً فى الأعمال، فلم يلحظ قدوم الشيخ سند إليه، ناداه الشيخ بالاسم الذى رجاه من قبل أن يناديه به: يا أحمد، قال الشيخ منادياً. نهره الجنود بغلظة، والرجل كان قد استدار، وفى وجهه عبوس وحنق ولم يجب النداء، هم به الجنود: مجنون أنت؟ إنه اللواء أحمد، قال الشيخ: ولكن كان اسمه هناك أحمد، وهو رجانى ألا أناديه إلا هكذا، الأن هو حر فى اسمه الجديد، ولكننى لن أدعوه إلا بذلك

الاسم القديم، يرضى أو يغضب، أقول لكم: أنا لا حاجة بى لأن أدعوه من الأصل.

خمسة وسبعون يوماً، كانت كل الزمن الذى صال فيه اليهود وجالوا على أرض الجزيرة، ناهيك عن الأربعون عاماً التى ساحوا فيها برفقة نبى الله موسى، ومرة أخرى عاد الراديو إلى الساحة المباركة: انتصرنا/انتصرنا، وضحك الناس على أشياء كانت تبعث حقاً على الضحك (الفرح في عموريا والرقص في البريج) خرجوا للشوارع ثانية، تفقدوا الغائبين منهم، وعادت الحكومة المنتصرة بطريقتها، فتح الأستاذ دكانه، عاد عوشى لتبدأ الجرفات من جديد، أخرج أبو الجراير حمارته السوداء من مخبأها، وعاد لتمشيط الشوارع والسواحل، صنعت الخالة تمام غليوناً آخر وعادت لتجلس تحت شجرة جوز الهند، إن شهران ونصف من الحرب لا تقدم ولا تؤخر فى دماء الحياة، الحمد لله.

الحربي

-١-

فى كل صباح جديد كان يختفى رجل أو رجلان من عواقل القوم بالمدينة، تهامس الناس فيما بينهم: ما الذى يجرى بالضبط؟ ذهبوا لحكمدار البلدة التى لم تزل تخضع لإدارة الحدود، أجابهم الرجل: هم فى أمان، هذا ما أقدر أن أقوله لكم، تساءلوا: أهم طرفكم يا سعادة الحاكم؟ قال: ليس بالضبط، لكنهم بخير، بعض الإجراءات الأمنية لابد أن تتم. ازدادت حيرة الناس، ماذا يفعلون عندكم؟ وأى إجراءات تمنع الرجال من العودة لبيوتهم؟ ولأن الحياة لا تخلو دائماً من صنف من الناس لا يخجل من تسمية الأشياء بأسماءها، فقد كان العمدانى واحداً من هذا الصنف، قال للحاكم الصامت دائماً: شوف يا بيه، الحداية عمرها ما ترمى صوصان(كتاكيت) وما دام الرجال طرفكم فهم فى قاع البير، والذى يزمر يا بيه لا يحتاج أن يغطى ذقنه، ماذا فعل الرجال لتأخذوهم؟ الحكومة لا تأخذ الناس محبة.

لكن بعد بضعة أيام عملت الحكومة بالمثل الذى ذكره العمدانى من قبل، ولم تر حاجة لأن تغطى عورتها، فقد قامت بجمع من شاءت من العواقل والشيوخ والبارزين دفعة واحدة، وساقتهم إلى السجن الحربى: إجراءات يا خال. أما ذلك السؤال الغبي: لماذا؟ فلقد تعذر حتى على الحكومة نفسها أن تجد أو تخترع له جواباً شافياً.

سيقولون: حكومة لا دين لها ولا رب، كالرجل الذي توفى أباه فهرع الناس لمساعدته فلم يفعل غير أن أخذ فؤوسهم ومعاولهم وأخفاها.

هكذا أصبحت المدينة ذات صباح بدون زينتها من رجالها، وتركوا للباقى حرية التخمين والإعتبار. ذهب مع الرجال اسماعيل الشايب لأنه لا يعرف أن يجيب على أسئلة لا يفهم معناها، ذهب الرفاعى الكبير، أولاد العمدة، الراجى والسعدانى، لكن المذهل فى الأمر أن يذهب أيضاً الخال رفاعى أبو

الجراير، والذى كانت تهمته فريدة وعجيبة: مريب وغامض. سيعانى كبار السن فى السجن كثيراً، سيبكى الشايب كما قصوا فيما بعد، ليس لأنه عجوز ولا يحتمل الصفع: لا، هذا بسيط يا ولدى، حتى الأنبياء يا جماعة لم يسلموا من الأذى، لكن أن يُحرم من الماء ويتعذر عليه الوضوء، أن الأمر ..... ثم يتوقف عن الكلام، ويدفن عينه فى الأرض فيما تتساقط على اللحية البيضاء دموع القهر: لا، لن أعيد رواية ما كان أبداً، حرام ورب الكعبة، حرام وعيب.

جرى سؤالهم فى المحبس: عن التعامل مع العدو؟ شعروا بوجع صارخ من السؤال، أجابوا بحقيقة تبدو كالسخرية: أن العدو تعامل معنا كعدو، وله الحق فى ذلك، ألسنا أعداءه بحق الله من كل الوجوه؟ لقد حبسونا فى سجونهم، وكالوا لنا الضربات، وقالوا عنا خائنين غير أننا احتملنا الجور والأذى منهم، حتى جاءت دولتنا فإذا بنا فى السجون مرة أخرى، فهل نحن هنا أعداء أيضاً؟ ما الفرق يا سيدى؟ إذا جاء اليهود صرخوا بنا: تعال يا خمار، روح يا خمار، وإذا جئتم يا باشا صرختم فى وجوهنا: تعال يا بن القحبة، روح يابن الشرموطة. ها أنت ترانا يا باشا فى السجن، ليس بالطبع كأبطال، فهل نحن خائنين أيضاً؟

و علينا أن نحتمل الجور والأذى مرة أخرى؟ إلى أين نذهب؟ وإلى من ننتمى؟ من يقبلنا بصفة غير صفة العدو؟

ثم يا باشا، أجبنا، أرح قلوبنا: حتى إن كان لسانى يختلف قليلاً عن لسانك، لونى غير لونك، أفقر منك قليلاً، لى لهجى فى بيتى، وعاداتى فى قبيلتى، حتى وإن كنت مختلفاً عنك فى قليل أو كثير، ألست أخوك؟ ألا أحمل اسم أبيك فى هويتى؟ ألا تطال رايتك سمائى وأرضى؟ ماذا أفعل كى أثبت بنوتى لصلب أبى! ألا يمكن يا باشا أن تتسبب قسوة الأب، وإهمال الأم فى

نشأة الولد العاق؟ قد لا يقدر أن يبادلهما القسوة والظلم، لكنه سيجد وفرة من الإهمال والجحود، فحين تطردنى من البيت لن أذهب إلى بيت الجيران، لا جيران لى، وجارى عدوى، لن أعرف ولن أجد غير ذاتى وصحرائى، سألتحم بعزلتى، وتصير المسافة بيننا ساحة رعب وتوجس.

بعد ثلاثون يوماً أفرج عن الرفاق، لأنه لم تكن هناك تهمة تليق بالبسطاء الأوفياء، رجلان فقط يتأخر الإفراج عنهما: أبو الجراير: الغامض المريب، والشيخ السلمانى.

خرج الرجال غارقين فى الذهول والصمت، ولا شئ مما جرى لهم هناك صار فى خزينة الأسرار، حكوا وقصوا تفاصيل ما مر بهم، هم الذين قاسوا الحياة الأشد واحتملوا ما لا يمكن وصفه من شظف العيش، صعب عليهم هذه المرة فقط أن يتجاوزوا هذه المحنة الطارئة، أعادوا طرح السؤال الذى سينمو فى الأصلاب الآتية: ليش؟ سيموتون ويتركون السؤال يترعرع خلفهم، يرن ويتدحرج في صحراء وذاكرة لا تنسى: ليش؟ وسيتركون الراديو وحده يصدح بالأغانى: انتصرنا/ انتصرنا، ويا صحرا المهندس جاى.

وحين اشترى جبريل الشيخ فيما بعد راديو صغيراً لاسماعيل الشايب ليستمع منه إلى القرآن، أقسم عليه الشايب أن يأخذ هذا الكافر الكاذب معه: والله لا ينام هذا الكذاب معى فى بيت واحد، حتى وإن كان يقرأ القرآن، أى قرآن يا جبريل هذا؟ اسمع يا ولدى: قرآن الحكومة مش قرآن، أما ربنا فنعرفه من غير راديو.

-٢-

صباح نهار من نهارات الحربى العتيدة، خرج رفاعى أبو الجراير إلى باحة السجن، كما هو المعتاد صبيحة كل يوم، غير أن الباحة كانت فارغة على غير العادة، لم يلق هناك سوى الشيخ السلمانى مستنداً بظهره إلى واحد من تلك الجدارات الكالحة، يحملق فى الأفق الكابي، ويهز رأسه للأمام والخلف على وتيرة واحدة: حي حي، ولأن الخال لم يعتد على السؤال ولا تعنيه الأحداث، ولا تلفت انتباهه ظواهر تبدو عادية، لذلك مضى ساكناً بصحبة الحارس حتى تركه الأخير بجوار الشيخ، فجلس هو الآخر دون أن يفتح فمه بكلمة. مال السلمانى على أذن الخال، وقال له: الحمد لله، لقد أطلقوا سراح الرجال وعادوا إلى الأهل، نظر إليه الرفاعى بعدم إكتراث، هز رأسه، وعاد للصمت المريب. هو لم يكن يشكو من شئ حتى يتذمر، لا بأس بالوجبات التى يقدمها الحربى له، رغم أنه فى أحد الأيام سأل الحارس: ألا يوجد عندكم سردين؟ وعلى أقل تقدير فالوجبات تجئ فى مواعيد منتظمة، ولا يتطلب الحصول عليها أدنى جهد، والجميل حقاً (إن كان يوجد فى السجن مما يمكن تسميته بذلك) هو أنه يتناول وجباته بمفرده، لا يشاركه أحد من الزملاء، وهكذا حققت له إدارة السجن (وهى لا تدرى) رغبة دفينة لديه، فلقد كان فى معظم الوقت يقضى وقته فى محبسه الإنفرادى، كل ذلك بسبب أنه المريب الغامض، وهو لم يدفع عن نفسه التهمة لسبب واحد لا غير، أنه ببساطة شاملة لا يعرف ما هو المريب، وما هو الغامض؟ فى مساء ذلك اليوم، جاء الحارس فجأة ليأخذه ليمثل أمام قائد السجن مباشرة، لقد كانت الإدارة تعوّل كثيراً على هذا اللقاء، ظنوا أن هذا الرجل يخفى وراء مظهره الكثير، أن وراء هذه الأسمال، السحنة الغريبة الشكل، أسراراً بالغة الأهمية.

أى نعم شكله يدعو للرثاء لكن الإدارة أذكى من أن تقع فى فخ الشكل الرث، التاريخ يقول هذا، كم من رجال كانوا مثله غريبي الشكل والأطوار، تافهين ومهملين، لكنهم ساهموا فى أحداث جسيمة، وربما غيروا من تاريخ أوطان وأمم وهم يتسترون خلف أقنعة وأستار كالتى يتخفى وراءها الخال رفاعى: على مين يا ابن القحبة؟

أدخله الحارس إلى غرفة قائد السجن حافياً وعارى الرأس كالعادة، بجلباب مفتوح الصدر وحبل الدوبارة العتيق يتدلى من عنقه إلى صدره ويغوص فى الشعر الأبيض النافر، ظل الحارس يدفعه حتى أوقفه مباشرة أمام مكتب القائد، انصرف الحارس بإشارة يد صغيرة، وتركهما معاً.

الخال الغامض والمريب، والرجل الرابض خلف مكتبه يتهيأ أن يحل شفرة الغموض ويزيل الطلاسم التى تحيط بهذا الكائن وربما إن نجح القائد فى هذه المهمة أن يتغير وجه الوطن، من يدرى؟

* أنت رفاعي حمدان البكيري؟ تساءل القائد بهدوء محسوب

ـــ أومأ برأسه: أه، أنا رفاعى حمدان البكيري، هل تعرفنى؟

* أنت مواليد سنة كام يا حاج؟

ـــ لم يفهم الخال السؤال، فلم يكترث بالإجابة.

* أيوه يا رفاعى، هل تأكل جيداً؟ هل يضايقك أحد؟

فكر الخال صامتاً: ماهذه السؤالات؟ ماذا يريد منى هذا الرجل؟ هل شكوت إليه أو لغيره؟ ولم يرد.

مازال القائد يتحسس الدرب، يبحث عن مدخل لائق لكهف الأسرار الذى يمتد فى أعماق هذا المخلوق.

* تبدو مهموماً يا شيخ، هل تريد أن تقول شيئاً؟ قل ما ترغب، أنا أستمع إليك وألبى كل رغباتك، بعد ذلك نريد أن نتحدث عن الأشياء الهامة، تفهمنى بالطبع، أنت وأنا، نحن جميعاً يا شيخ فى خدمة هذا الوطن.

اقترب رفاعى من حافة المكتب الخشبى حتى أسند كفيه المجعدتين على طرفه، مد برأسه للأمام فى اتجاه القائد، ظن القائد أن لحظة السبق قد حانت، فاعتدل فى كرسيه الأسود الأثير، ومال برأسه هو الآخر ناحية الخال، اقترب الوجهان تماماً، يفكر القائد بعمق: يجب ألا تفوته كلمة، حرف، مما سينطق به الرجل الأن، حاول دفع المزيد من الحرارة فى دم الخال المتأهب.

* قل ما تشاء يا حاج، أنا استمع، قل، ولا تخشى شيئاً.

_ بهدوء رتيب قال الخال: عاوز أمشى، كفاية كده، والجماعة سبقونى، وأنا نويت إن شاء الله الرجوع غداً.

* تمشى! ردد القائد بغضب، تمشى فين؟ ألا تعرف أين أنت؟

_ أه يا ولدى، أين أنا؟ ثم هل أنت تريدنى فى شئ؟ أنا ورائى أشغال ومصالح، أرواح معلّقة فى رقبتى، حاجاتى مدفونة فى الرمل، ولا أحد يعرف عنها شئ.

* ضاق صدر القائد فجأة: أنت أهبل يا روح أمك؟ فوق وركز معايا، وإلا لن ترى وجه الشارع ثانية.

_ عيب يا ولدى، صحيح، اللي ما يعرف الصقر يشويه، هل تعرف يا ولدى كيف أصل إلى طريق البحر من هنا؟ أنا نويت إن شاء الله أمشى بعد الفجر، قول يا رب.

* انتفض القائد غاضباً: أنت لن تمشى، فاهم؟ أنت محبوس هنا، لن تمشى أبداً قبل أن تجيب على أسئلتى، وتكون أميناً وصادقاً، هذا مستقبل وطن، عارف يعنى ايه وطن؟ لا تتحامق علىّ، وتتصنع دور الأهبل، ماهى

الأشغال التى تريد الذهاب إليها؟ وأى أرواح معلّقة فى عنقك؟ وماهى الأشياء المدفونة فى الرمل؟ حاول أن تفهم، هذه أمانة للوطن، لا تخفى شيئاً عنا، وسوف تلحق بأهلك فوراً، فقط تكلم بصراحة.

تلفت أبو الجرايد حواليه، كانت قد آلمته قدماه العجوزتان من الوقوف فجلس على الأرض دون حتى أن يأخذ إذناً من القائد، ابتلع القائد هذه السقطة من العجوز، ترك مقعده، وذهب لمواجهة العجوز على الأرض، ناوله سيجارة: تدخن؟ أشاح الخال برأسه عن السيجارة واليد الممدودة، بدت الحيرة على وجه الخال، فيما صار الهم يتصاعد من صدر يتمتم: تقول إنى محبوس؟ ليش يا خوى؟ ماذا سرقت منك؟ وتريد أن تعرف كل شئ؟ سأخبرك بما تريد، لكن الله يعلم، أنا لم أسرق شيئاً حتى تقول أننى محبوس، سأقول لك كل شئ، لكن لابد أن أمشى فى الصباح، قلت لك، أنا نويت إن شاء الله.

هذا يا ولدى آوان تلقيح النخيل، الأن بدأ نخل المواصى يخرج كيزانه، لا أحد سيذهب إلى نخلاتى ويلقحها بدلاً منى، هل هذا يرضى الله أو يرضيك؟ سقف الغرفة يا ولدى منذ العام الماضى يحتاج إلى بلة ونقل طين وكناسة تبن، أأنت ستفعلها يا ولدى! لا، لا يحك جلدك غير ظفرك، ثم حتى اليوم لا أعرف من يقوم بتعليف حمارتى وماشيتى هناك، يمكن الوطن الذى تقول عنه يقوم بذلك! لا، لا يا ولدى، ثم مستندات الأرض التى آلت إلىّ عن أبى وجدى مدفونة تحت الرمل، لابد من إخراجها من آن لأخر حتى لا تفسد، ثم بصراحة الله، ايش عاوز منى؟ أنا سئمت بدون البحر والريع، وأريد أن أمشى.

هب القائد واقفاً، كاد أن يصفعه وهو يصرخ فى وجهه: أحدثك عن الوطن ياابن الشرموطة، وتحدثنى عن النخل وحمارتك وورق أبيك، ويرد الخال

مذهولاً: وطن/ وطن، ما هذا الشئ يا ولدى؟ والله لا أعرف عنه شيئاً، وهذا يمين بالله ثلاثة، لا أعرف عنه شئ.

يعود القائد نافذاً صبره: هل لديك أسلحة مخبأة؟ هل لديك وثائق هامة عن العدو؟ ويرد الخال مندفعاً: سلاح، أى نعم، نحن لا نمشى إلا وسلاحنا معنا، وسلاحي شرخ (بلطة صغيرة للنخيل) لا يغادر خرج الحمارة، وأما الأوراق فقد قلت لك عنها.

والعدو؟ العدو يابن القحبة؟ يصرخ القائد، ويقول الخال: أنا ليس لى عدو، الله يكفى الكل.

يواصل القائد الصراخ، سيأتى الحارس على عجل، وسيصرخ فيه أيضاً: خذه، خذ ابن المجنونة والثانى أيضاً، اقذف بهما للشارع فوراً، اتركه يضل أو يضيع فى الشوارع، لا نفع فى هؤلاء المجانين، خسارة الأكل الذى أكلوه، للشارع، للشارع مفهوم؟

سيمضى بهما الحارس للشارع، لا متاع لديهما ولا أغراض، فى عرض الطريق يقف الخال مبهوتاً، يلتم الناس على الهيئة الغريبة، يسألهم: أين طريق البحر يا جماعة؟ منهم من يضحك، ومنهم من يرثى للجنون، سيجد أخيراً من يفهم رغبته، وينقله إلى بر القناة الشرقى، هناك ستلمس قدماه البحر، يتنفس هواءه ومعرفته ووجوده، يمد الرأس العارى فى اتجاه الشرق، يعطى ظهره للوطن ويلزم شاطئ البحر حتى يصل إلى بلدته، سينام يوماً وليلة كاملين قبل أن يفيق، ويرى الوجوه التى تعرفه ويعرفها، سيعرف أن الحرب أضاعت حمارته السوداء ولن يرضى عنها عوضاً، وسيبدأ فى البحث عن السارق، منحته الحكومة أربعة جنيهات كتعويض عن خسائره فى الحرب والسجن، رفض أن يتسلمها: ليش يا خوى؟ قالوا له: يمكن ثمن الضرب والحبس يا خال؟ يقول: لا، الحساب يوم الحساب، والظالم خسران.

وفي أوقات الصفاء والخلوة مع الخلان، يهمس بعد أن يتيقن أن لا غريب في الجوار: هنالك عند الجماعة عرفت كل شيء، ما عدا شيء واحد لم أفهمه أبداً يا جماعة، هنالك يتحدثون كل دقيقة عن شيء اسمه: وطن!!

الله أعلم يا جماعة الخير، ماذا تكون هذه الداهية الكبيرة؟! لكن من سترها في الأول، إن شاء الله يسترها في الآخر، الحمد لله.

رحيل الشابي

[١٩٣١]

-١-

شوف يا خالتي، ذهب الرجال إلى السجن كالجمال، وعادوا منه كجديان مريضة: قالت الخالة تمام للصبي.

لقد عادوا من السجن مرضى، مقهورين وصامتين، جّدك اسماعيل يا ولدي صار يصلي وهو جالس على الأرض، وصارت الكلمات تخرج من فمه كأنها حنظل مُر، يقولون أن جنبه لا يكف عن الوخز كالإبر، وهم خيروه بين العلاج في العاصمة كما أوصى الطبيب، أو الكي بالنار كما أشار عليه السلوم طبيب المواصي، لكنه قال:

النار أهون من الذهاب إلى هناك.

شوف يا خالتي ماذا يفعل القهر بالرجال؟ يلتف حوله أولاده وأحفاده وصحبه، يحملونه على عربة كارو من آن لأخر، ويمرون به على طول الشريط لتسليته والتخفيف عنه، يحدق في الأرض والناس والبحر، يغرق في أزمان بعيدة أو تحرك أعماقه أشياءاً تبدو له غريبة، ينطق بكلمات قليلة وواهنه، يشاهد حفيده سند وهو يواصل غرف الرمال من الكثبان وقذفها إلى البحر فيهز الرأس الذي صار صغيراً كرأس عصفور، يتوقف عنده برهه ويقول: مازلت على جنونك يا ولدي. سيبصر ولده سلامة الشلالي في سردابه الصغير، فيهب الولد لملاقاة الشيخ وتقبيل يده، ينظر لساعة كبيرة تلتف على زند سلامة، يسأله: كم الساعة الأن يا سلامة؟ ويرد الشلالي: والله ياشيخ لا أعرف فيها، يتبسم الشيخ، ويسأل: ولماذا تلبسها إذن؟ يومين ياشيخ حتى نشوف لها بيعه، ولأنه لم يشتر الساعة ثراءاً، ولا لحاجة لها، كل ما في الأمر أنها رزق من الله، فحتى حين يسجن الرجال، ويكف المطر، ويمسك البحر قوته عن الناس، فإن الله ياخال لا ينسى المخاليق، وإلا كيف تفسر ما جرى؟

يقول سلامة: كنت جالساً على رأس السرداب من ناحية البحر، والله يا خال لا يدور في رأسي غير الهواء، قريباً من ساحل البحر رأيت لوحاً خشبياً يدفعه الموج ويجذبه، قلت: بسيطة، بعد قليل أخذتني الحيرة حين كشف لي الموج عند إنحداره عن شئ أسود مربوط في طرف اللوح، كانت الدنيا بعد شروق الشمس بقليل، هجانة الشاطئ مروا منذ الصباح الباكر، تلفت فلم أر أحداً حولي، هبطت للماء لأجذب عرق الخشب، حين جذبته وجدته ثقيلاً، هذا ليس ثقل الخشب، لكن جوالاً من البلاستيك الأسود الغليظ مربوط في طرف اللوح بحلقة من حديد، ناديت حينها على ولدي فساعدني في جذب الخشبة والجوال معها، أمضينا يومنا كله في نزع الحلقة الحديدية عن لوح الخشب، وحين فتحنا الجوال الأسود وجدنا داخله جوال أخر من البلاستيك السميك، مرصوص بداخله قوالب بنية مغلفة بورق شفاف، كأنها عجوة يا خال، أرسلت الولد للبلدة ليأتي بواحد من التجار عسى أن يعرف ما هذا الشئ وربما يكون من وراءه ثمن جوال من الدقيق، رزق الله يا خال.

حين جاء التاجر حملق فينا، وفي بضاعة البحر، قال: يا خراب البيت، أتعلمون ما هذا؟

قلنا مذهولين: لا والله ما نعرف ماذا يكون، قال: أيها الحزانى، إنه حشيش، كارثة كبيرة، الحكومة تمنعه وتحاربه، ومن تجد لديه شئ منه فإلى السجن مباشرة وإلى الأبد، قلنا: ياساتر من الفضايح يا رب، والله ما كنا نريد غير لوح الخشب لكن هذا الزفت كان مربوطاً فيه بإحكام، قال لنا التاجر: أنا سأخذ هذه المصيبة عنكم، واتصرف فيها بعيداً، حتى عن البلد كلها، وحذرنا أن نخبر أحداً من الناس بما جرى، وإلا فالحكومة لن ترحم أحداً كعادتها، وأضاف الرجل الكريم: سوف أعطيكم عشرة جنيهات كاملة ثمناً للوح

الخشب لأنه من الصنف الثمين، قلنا: كثر خيرك يا رجل، خذ ما تشاء وأسترنا من هذه البلوة، مالنا والحشيش يا خال ما دامت الحكومة لا تحبه؟ وزيادة في الكرم أعطى ولدي هذه الساعة التي ترون، قال إنها غالية وهي هدية بلا ثمن غير أن الولد رفض أن يأخذها، قال: ماذا أفعل بها؟ سوف تعطلني عن أشغالي، أقلع وألبس فيها، وهي لا تلزمني في شيء، ورماها على الأرض، أخذتها يا خال، وها هي كما ترون، لا تحل، ولا تبل، بس منظر كذاب، وبعد ساعة سلامة التي لا يعرف أحداً في المواصي كيف تدور، وإلى ماذا تشير، سينتبه الرجال إلى التحديق في البحر، لعل وعسى، فالبحر لا يكف عن عطاياه، وصارت الأمواج والتيارات والأقدار تقذف من آن لآخر بألواح من الخشب مربوط في أطرفها حلقات حديدية تمسك أجولة من الرزق، تقول عنه الحكومة أنه ممنوع وحرام، شوف العجايب يا خال، منذ متى تعرف الحكومة الحلال والحرام؟ فيما أخبرنا ضيوف من أكابر الناس أن كل الرؤوس الكبيرة لا تعمل ولا تقود الحياة إلا وهم في تمام الاكتفاء من هذا **المسحوق**، ويضيف سلامة: ممنوع، حلال، حرام، لا شأن لنا يا خال، مبروك عليهم سبع بركات، يأخذوه أو يحرقوه، المهم الوحيد يا خال هو كيس الطحين.

-٣-

الله يرحمك ياخال، هكذا ردد الشلبي وهو يُغسل الجسد الذي عاد كجسد طفل صغير، مَنْ يُصَدِّق يا ناس أن لهذا الرجل مائة عام وأكثر من العمر؟ والله نومة يا خال اسماعيل، وحين يهبط بيده الخشنة قريباً من عانة الرجل الطيب، تكاد تفلت منه إبتسامة الذكرى، أي نعم هذا هو الغصن الذي ملأ شريط المواصي بالرجال والنساء، عائلات وسراديب وعرائش، اخس عليكي من دنيا. سيدفن في جبانة البلدة ويعودون سريعاً للشريط ليقيموا مأدبة الرحمة هناك تحت النخيل كما أوصى من قبل: أدفنوني حيث تشاءون لكن رحمتي تقام هنا، لأن روحي في هذا المكان فقط. في تلك الليلة جاء الناس من كل صوب وحدب، أو كما يقولون هم (من عذب ومالح)

ولم لا؟ والرجل قد كان قيمة ثمينة في أهله وعشيرته، ومن لم يعرفه فقد جاء لينال حظاً من عشاء الرحمة أو يتزود بالأخبار في جلسة الرجال العامرة وقرب مجمرة النار تدور فناجين القهوة المرة بالحبهان على دوائر الرجال الواسعة، وفي جذوع النخيل المتراصة يقوم الرجال بربط دوابهم من أبل وحمير، لم تكن هناك غير فرس وحيدة وسط هذا الحشد، متى جاءت وجاء صاحبها؟ هم يعرفونه ويعرفونها، في أقصى طرف من الدائرة يجلس الرجل على ركبتيه، حذاؤه الجلدي الطويل، سيجارته الغليظة لا تكف عن نفث الدخان، صوت خشن أجش، بيده قطعة من الجلد العريض يقول عنها أنها: الترس، عاري شعر الرأس إلا من خصلات بيضاء تتناثر على مؤخرة الرأس من الخلف، من آن لآخر يقف مشدوداً ويذهب ليبول واقفاً وراء جذع نخلة: غريب يا جماعة الخير، يبول واقفاً كالكلب، ثم يُدس عانته في البنطال دون أن يغتسل؟ ياساتر يا رب.

لا يأبه بدهشة الناس، يتحدث في ليلة العزاء مع الرجل الجالس إلى جواره بلا إكتراث، يذهب إليه أحدهم: بعد العزاء تحدث كما تشاء يا رجل، يجذبه إلى الأرض ويعاود سرد القصة عليه، يحار الرجل بين الضحك والغضب، بعد قليل من الوقت سيلتف حوله الكثير من الرجال، ينصتون بصمت إحتراماً لليلة الراحل العزيز، وهم يكتمون في ضلوعهم ألف مشروع لضحكات مؤجلة، سيعلو صوت الشيخ سند: ليس الأن يا ليواني، ويرد الليواني: هم ياشيخ من يريد أن يعرف ماذا فعلت مع الكنبوت (سمكة بيضاء كبيرة) ينتظرون حتى صلاة العشاء، سيقرأون أدعيتهم من رؤوسهم الطيبة، خالية من البلاغة والسجع:

يارب أنت تعرف، لقد كان رجلاً طياً، فكن معه كذلك، آمين.

سيأكلون بسرعة تليق بالرجال إذ لا يأكل على مهل سوى النساء والاطفال، ويشربون القهوة حتى تفرغ وتنضب البكارج والأواني: في رحمة ربك يا حاج اسماعيل، سلم يا خال على الحبايب، سلم.

ويقول الليواني ضجراً: خلاص، مات يعني مات، شوفوا موضوع تاني، ايه يا خيال، تعال يا رجل، ما موضوع الكنبوت إذن؟ ويقول الليواني الكثير، ليس عن ماضي يتحدث، ولا عن مستقبل كذلك، الحياه عند الليواني هي ما يفعله فقط، يا لها من حياه!

الخيال

—١—

لا والله ياناس، ما هو نبت شيطاني ولا نامت البلدة ذات مساء وأصبحت وفيها هذا الليواني، وكيف يحدث؟ وهو إبناً لعائلة معروفة الأباء والجدود والأمهات، ولا هو أيضاً يشبة أباً أو عماً أو خالاً، هو وحده من صنع الليواني، كما يراه ويعرفه أهل البلدة.

لقد حاولت العائلة قدر ما تستطيع أن ينهج الأبن سلوك أبناءها، أدخلوه المدرسة فخرج منها، ضربوه وحبسوه فعاد أكثر جنوحاً، حين بلغ مبلغ الشباب قالوا: عسى الزواج أن يُصلحه فزوجوه. أشبع غريزته في النكاح من المرأة المسكينة، أنجب أولاداً وبناتاً ثم تركهم للعائلة تقوم بأمرهم، تسكع في الشوارع، التقط أعقاب السجائر من الأرض، تعرف على الخمر صغيراً وصار يصنعها من أي مادة تطالها يداه، ملت العائلة والبلدة سلوكه الفج الممجوج فهجرها الى المزارع والكثبان، قال: لا أحد قادر على أن يفهمني، يريدونني أن أعيش على هواهم، وأنا يا قريبي لا أستطيع، لا أفهم ما يقولون، هذه هي كل المسألة، إذ كيف يا قريبي أن تحيا وسط اناس لا يفكرون إلا في الحلال والحرام، العيب والممنوع، وإذا أردت الفهم والسؤال، عفروا في وجهك التراب، وقالوا كافر وقليل تربية، ليقولوا ما يشاءوا، لكنني أيضاً سأعيش كما أشاء.

دخل أولاده المدارس، صاروا معلمين وهو لم يزل يقول: كل مافي الكتب أكاذيب، أولادي يعلمون الصغار الكذب، شوف ياقريبي، ألم نر نحن اليهود هنا في شوارعنا؟ هذا يعني أنهم وصلوا إلينا، دخلوا بيوتنا، لكن الكتاب يقول: انتصرنا، يعني نحن الذين ذهبنا إلى بيوتهم وتجولنا في شوارعهم، قل لي أنت، مَنْ الصادق؟ ومَنْ الكاذب؟ ثم ماذا يريدون مني بالضبط؟ ليل نهار يحومون حولي: صلي يا ليواني، صوم يا ليواني، حج يا ليواني، يخوفونني أن الله يترصدني، هل تصدق أنت هذا؟ أن الله ترك كل ما يليق به، وتفرغ ليراقب

الليوايني وحده؟ أنا أعرف أن الله لا يريد مني شيء ولا يحتاج مني شيء ليدخلني كما يقولون الجنة، الله يا قريبي ليس تاجر، ثم أنا وربي أحرار، ليتركوني فقط، هذا كل ما أريده منهم، هل هذا كثير؟

أصبح الليويني ذات نهار وهو يقول: أنا خُلقت لأكون خيّالاً، ضحكوا كالعادة، وقالوا: زين، أنت حتى لا تعرف كيف تمشي على رجليك، أنا خيّال، قالوا له: توكل على الله، أنت خيّال يا ليوايني، أجابهم بغضب: ماذا تقصدون؟ أكذب وأصدق كذبتي؟ سوف ترون.

قبل ذلك بأعوام قليلة ولأسباب مجهولة ماتت الحرمة، أم الأولاد، قص الليوايني على محمود صديقة المثقف آثار هذه النكبة: ماتت يا محمود، ما في مشكلة، الموت موت، والحياة حياة، المشكلة يا قريبي في مَنْ سيزودني بإفطار الصباح؟ وإذا عدت للدار وجدت غموساً وأرغفة، لا أعرف من أين يأتون بها، وأخر الليل يا محمود أدُس بين أفخاذها هذا العمود الأغبر، وحين هجر البيت بعد أن ضاعت الحرمة، وضاعت معها الرحمات المجانية التي كانت توفرها له، أنطلق سائحاً يردد: أنا خيّال، ولأجل ذلك، وهو إبن العائلة المعروفة، عمل أجيراً عند القادوس لمدة عام كامل، لا أحد يعرف ماذا كان يعمل؟ كل ذلك مقابل أن يعطيه القادوس ما في بطن فرسه الدهماء، ولقد أوفى الرجل بوعده، وبعد ثلاثة أشهر من رضاع المهرة، ألبسها البالطو الذي كن يتلحف به، وجرها عبر شوارع البلدة، والناس يضحكون، أقام له وطا عريشاً في المزارع القريبة شرق البلدة، صار يتسول الأرغفة ويطعمها، يسرق الشعير من مزارع الجيران لأجلها، يملأ جيوبه بقطع السكر من دواوين العائلات، ويخبئها للعروس التي أسماها: **فُرجة**، مر عامان كاملان حتى استوت العروس على قوائمها، جاء لها بسرج جلدي داكن، ألجمها لجام فضي براق، وزان عنقها برشمه حمراء قطيفة، قالوا: باع نصف البيت الذي آل إليه بالميراث

ليوفر جهازاً لائقاً للعروس، وهو أيضا تجهز لها بالحذاء الجلدي حتى الركبة، الترس المفتول من الجلد الناعم، وقبعة عريضة تحصل عليها من أحد الجنود العاملين بفرقة الطوارئ، طاف بها أرجاء البلدة وقراها وهو يقول مزهواً: أنا خيّال.

كانت مهرة حمراء جميلة، صوتها يرن في الأنحاء كزغرودة فرح، تتكفأ في مشيتها كأنثى تتيه بجمالها الفذ، حتى إذا أرادت أن تسلب القلوب، مدت عنقها السابح في الهواء وسابقت الريح بحوافرها على ساحل البحر ورذاذ فضي يتناثر حول محيطها الطائر، ثم تقف على مهل، تنفض عن جسدها الفاتن حبات العرق المنحدر على العنق والصدر الفاخر، حقاً لقد كانت فُرجه. لم تخل الحياة أبداً من شواذ، فلقد أحبت فرجه الليواني، تتبعه في الشوارع وهو يمشي على قدميه، تقف إذا توقف، تحدق فيه إذا تكلم، تهرول إليه إذا ناداها، بل قالوا: لقد حاربت الذئب من أجله، والليواني أوغل في حب ذات الدلال، أكتفى بها نصيباً وحظاً من الدنيا، غار على شرفها، هو الذي لا يغار على بنات العائلة، ولم يعرف للغيرة معنى إلا معها، فأبى أن يعلوها حصان لتنجب، قال: لا، لا يا قريبي، لا أريد لها أن تتذوق متعة غير مرافقتي، ثم لماذا تنجب؟ ولمن؟ لقد وهبت كل نفسي لها، وهي لن ترضى أن تكون أقل كرماً، لقد صارت فُرّجة فرساً ذائعة الصيت والجمال، وصار لها في أخر الأمر خيّال.

لقد صنعت فُرجة للخيّال هيبة وحضوراً، فيما صنع الخيّال لها حكايات لا تموت، أما المهرة فهي ماثلة بين أُعين الناس، صهيلها يرن في أذانهم، لكن حكايات الخيال محض حكايات، صار الناس يتداولونها كالمأثور: قال الليواني، شاهد الليواني، والليواني غير مُبالٍ بحقيقة ما يروى عنه، قالوا: لقد أندهش كثيراً من خسارتنا للحرب الأخيرة مع اليهود، سأل الناس عن أسباب هذه

الخيبة الكبيرة، أخبروه بأن أمريكا تساند اليهود دائماً، عاد وتساءل: ونحن، مَنْ يساندنا؟ قالوا له: ليس سوى الله، أجابهم: في الحرب القادمة ليأخذوا الله، ويعطوننا أمريكا، نفضوا في وجهه التراب: الله يلعنك يا كافر.
وفي سنوات متأخرة أصاب المهرة وجع في ساقها الأيمن فصارت تعرج وهي تمشي على الأرض. قالوا: ربما الحسد ياليواني؟ وهو يقول: لا، لم يؤمن بهذه الأشياء، ويردد: بل الوقت كله أصبح أعرجاً.

لف الساق المريضة بالشاش الأبيض، عمل لها وصفات علاج من أعشاب ومر وحنظل، كف عن الركوب، وصار يمشي إلى جوارها متألماً، تعكر مزاجه إلى حد الكآبة، أطلقها من عقالها فصارت ترعى وتعود إليه كعجوز مريضة، قال له صديقة المحمود: لنرحمها ونطلق عليها النار، كاد أن يقتله وطلب منه أن يغادر للأبد، وبعد أيام وجدوه متكوماً فوق السرج البني الداكن وبجواره لجامها الفضي، الترس، الرشمة الحمراء القطيفة، غارقاً في نوم ثقيل، قلبوه وتشمموا أنفاسه، عرفوا أنه قد غادر إلى الأبد، جاءت فُرجة في المساء وهي تعرج، شاهدت الناس ولم تشاهد خيالها، قالوا: صهلت مرتين وعادت للعراء القديم، ويقولون أيضاً أن المحمود لحق بها على أطراف البلدة، وجدها جاثمة على كومة رمل، أطلق عليها أربع رصاصات، وألحقها بخيالها الغريب، وحين وسدوا الليواني في باطن التراب عادوا لمنازلهم، وأبى الأولاد أن يقيموا له ليلة للعزاء، قالوا: ماذا نقول للناس؟ فيما قال صديقه المحمود: من يعرف منكم إلى أين يذهب الليواني؟ للجنة أو للنار؟ قالوا: لا أحد يعلم، هو في رحمة ربه، قال المحمود: هذا ما كان يقوله طيلة عمره، وحتى لو عرف الليواني بما فعله الأولاد، ما كان ليهتم.

جتوت

- ١ -

والله سلامتك ياحلو يا أسمر، يا ملو عين العاهرة، عساك من وجع الجروح تطيب.

هكذا يردد الرجال والنسوة كلما مر أمام أعينهم، الحلو الأسمر، حامي ربوع القبيلة، ساقي أهله يوم أن يجف الريق، وهو حافي القدمين، مشقوق الثياب، يصرخ ويهذي، يلوح بذراعيه العاريتين إلى كبد السماء كأنما يُشهد العلي القادر على ما صار معه وفيه، الرقيق من الرجال سيبكي حين يراه على هذه الهيئة، ويخفي وجهه بين يديه حتى يمر ويتوارى دون أن يرى مآل الدنيا التعسة.

الأقوياء والعقلاء منهم، رفاقه القدامى في دروب العز والرجولة، سيقبضون على قلوبهم ويذهبون إليه: مالك يا سيد الرجال؟ سلامتك يا زين الناس، تعال معنا يا خوى ولا تزهق روحك. عيناه زائغتان، بريق ناري ساطع يمور في الجبهة السمراء العريضة، بين حين وأخر يبكي، يضرب كفاً بكف، يصيح:

يا شجرة الرشراش حاميكِ أسد، وتكسرت الأغصان من كتر الحسد، ويلي زرعنا الزرع، وغيرنا حصد.

يحاولون جذبة إليهم فيفر، يصرخ أحدهم غاضباً وعاجزاً: تفوووه عليكي دنيا، والرفاعي الكبير يتطاير كريشة في إتجاه البحر كاتم الأسرار.

حين دخل اليهود المدينة، جمع الرفاعي أخوته وأولاده، قال لهم في الديوان: الحرب يا جماعة نكبة، والمال الذي جمعناه بصدأ أسناننا طوال سنين العمر، أخشى عليه الضياع، ماذا لو هجم عليّ اليهود؟ كفرة يا ناس، ما يخافوا الله ولا العيب، وأخذوا كل ما لدي، ساعتها، كأنك يا بو زيد ما غزيت، أنا لا أخاف على الأراضي، الأرض يا ناس لا تطير، أقول لكم،

المال، الذهب، النقود، السندات، وأنتم تعرفون ما أعرف، الأرض لا تخبر عما في باطنها، سأقسم المال إلى حصص متساوية، كل واحد فيكم يأخذ جزءاً، ويدفنه بمعرفته في مكان أمين، يتعذر على أي أحد الوصول إليه، يعلم الله يا جماعة ما فضلت نفسي عليكم في شيء، وأنا الشيخ الذي باع واشترى، ربح وخسر، لم أشبع ليله من نوم، جعلت نصيبي كواحد منكم، هي الحرب، لا يعلم آخرها إلا الله، ثم نرى إلى أين تقودنا الدنيا، أعطى أخوته وأولاده الأمانات التي قسمها بينهم بالتساوي، ذهبوا وعادوا إليه في آخر الليل: تمام يا شيخ، لا تخشى شيئاً، لا اليهود ولا الجن سيعرفون ما قمنا به، قال: توكلنا على الله، وذهب مستريح الضمير لينام.

خرج اليهود وجاءت الدولة، ذهب الرفاعي مع مَنْ ذهب للسجن الحربي، مكافأة صغيرة على ما قام به مع الجنود المنسحبين، كان يقول في هذا الشأن: ليس مهماً، ستجد دائماً في الحياه من لا يعرف الفرق بين من يُخريك أو مَنْ يوضيك، ثم خرج حين بان للدولة أنهم كانوا يظنون ما لا وجود له أبداً.

جلس الرفاعي في ديوانه العامر يتلقى تهنئة الناس وربوع العائلات، كان ينادي على رجاله وأخوته فيأتون ناكسي الرؤوس، صامتين بعيون كسيرة ومتوجسة، حين أنفض الناس جَمع أخوته والأولاد، سألهم: ما الذي جرى لكم؟ أنا الذي كنت سجيناً وليس أنتم، خرجت كلماتهم مغموسة بالتراب والمراوغة، قبل أن ينصرفوا قال لهم: أيام الشدة زالت والحمد لله، آن لنا أيضاً أن نعود، أذهبوا وهاتوا الأمانات التي لديكم، توكلوا على الله، هيا، هيا يا رجال. لو كان في مقدور الشيطان أن يعتذر، غير أن اللعين ركب رأسه، ووجد في الناس ضالته، الشيخ الرفاعي يريد الأمانات؟ فليكن يا شيخ، ذهب الأخوة إلى بيوتهم حيث الزوجات الأمينات على ودائع الرفاعي، وفي باكورة

الصباح عادوا للرفاعي، نفس الوجوه التي تعكرت، والعيون التي ضاعت فيها البراءة، كان يتقدمهم الأستاذ الذي تكفل به الرفاعي منذ الطفولة، هو الذي اصطفاه من دون أخوته، وهو الذي حارب لكي يتعلم، وهو الذي افتتح له محل التموين، ثم هو الذي أهداه لقب الأستاذ، تهلل وجه الشيخ لرؤية الأخوة، قال لشرهان الخادم: صب للرجال قهوتهم، جلسوا حوله متململين، يحمل كل منهم صُرّة بين يديه، هاتوا، هاتوا يا رجال، صاح بهم الشيخ، زحف كل منهم تجاهه، وألقى بصرته بين يدي الرفاعي، صار يفتح واحدة بعد الأخرى، هل كان يضحك ساعتها؟ يُمسك الصرة ويفرغها في حجره ثم يحدق في صاحبها فاغراً فاه، حين انتهى من فتح ودائعه، اطرق برأسه محدقاً في حجر جلبابه، ضرب بكفيه على ركبتيه، قذف العمامة إلى الأرض، ثم ماذا بعد؟ صرخ كالنشيج: أين المال يا أستاذ؟ ما هذه الشيط والشراميط؟ والأستاذ لا يتردد في الجواب: هذا ما وجدناه يا شيخ، ثم من العيب أن تُخوّن اخوتك، أما عني، فأنا لا أرغب في الشراكة من جديد، صمت الباقون، وهم بعضهم بالانصراف، قام الرفاعي كالملدوغ، اتجه ناحية باب الديوان وأغلق ضلفتيه، صرخ بشرهان الخادم فجاء على عجل، قال له: الباب لا يُفتح يا شرهان، هذه أمانتك، إن ظل في الدنيا أمانة! ناولني النبوت يا شرهان، وحين ناوله الخادم عصاه الثقيلة، قام وتوسط الغرفة المزدحمة باللحمة ودمه، صارت عصاه تتمايل في الهواء الحبيس، جأر من أعماقه: أين المال يا خونة؟ مالي، شقا عمري، ثمن كدي في الليل والنهار، في البر والبحر، جعلت من الفئران أسود، صنعت لكم اسماً وعائلة ومال، أربعون عاماً يا كفرة وأنا أحلب لكم الدنيا، أهذا كل ما خلفت؟ مالي، أين مالي؟ ماذا تظنون بي؟ كبرت وخرفت؟ أم لانت يداي على أن أجعل عظامكم ألين من عجين نسلكم؟ ثم راح يهوي بعصاه على الرؤوس والأجسام، ما كان يدري أين تقع ضرباته، يضرب وحسب، يصرخ وحسب، وحين اجتمع أهل البلدة على

الصراخ المتصاعد من ديوان الرفاعي، وجدوه واقفاً وحده، يتوسط أجساداً مرصوصة على الأرض كالموتى، أخذوه فيما بعد للأطباء، أحضروا له الشيوخ وأصحاب التعاويذ، غير أن دائمة كانت عزيز الدواء، ربما ليس هو المال وحسب، المال الذي كان يقول عنه: أنه يُعادل الروح. ربما ليس التهم للمزيد من الرئاسة والزعامة، قالوا: تعذر عليه القبول، لن يقبل السبع أن يصير كلباً تحت أي من الظروف، لم تقبل روحه التي لم تكسرها الحياة ولا السجون أن تظل راضية بغنيمة الخيانة، طاش العقل الرزين، طارت أوتاد الحكمة من رأس الرفاعي، حتى قالت الخالة تمام: اللي يسلم من الموت يتجنن.

حاول سند قريبة وقرينة أن يأويه إلى جناحه ويطيب خاطره، لكن الحياة برمتها تعثرت فجأة على الأنف العصي، لم يبق إلا الهيكل القديم ما يدل على أنه الشيخ الرفاعي، وذات ليل أسود، وهو يطوف بالشوارع والمزارع، وجد ناراً قرب أحد الآبار، ووجد برميلاً ممتلئاً إلى جوارها، تحلق حول النار، واستند بظهره إلى البرميل، عاودته نوباته فقام بالصراخ والهذيان:

والله يا عين لأجرح رمشكِ بالنار، يا اللي هويتِ الودي، والطيبين كثار.

داس بقدميه العاريتين في الجمر الملتهب، سكب البرميل الذي لم يكن سوى جازاً لتشغيل البئر، تصاعدت ألسنة اللهب إلى كبد السماء الحزينة، زادت النيران من هلوساته، صار يصرخ ويصرخ:

أحمر أحمر يا دم الشبك، أحمر أحمر يا وجع الحبايب.

تناولته النيران وجمراتها، ربما ما كان ليشعر بالألم مقارنة بتلك الطوفان الغاضب، الذي ذهب بعقله ورسوخه، صعدت به ألسنة اللهب إلى ملكوت بعيد، دخان دخان يا خالتي صار خالك الرفاعي، تقول تمام للصبي، سبحان الله يا وليدي، ما يضل على المزاود غير شر البقر!

عودة الحالم

-١-

ولا غايب غير يعود، غير الغايب في اللحود.

كاد أن ينسى الناس، والنسيان نعمة من الله، وإلا وقف كل محزون على حزنه حتى مات.

ففي كثير من الاحيان، حين يمر سلمان اللهداني على الناس في شريط المواصي، وهو الشقيق الأصغر لسالم الغائب في البحر، يتابعه الناس بنظراتهم فقد يتذكر أحدهم: صحيح يا ناس، في الدنيا رجال وفيها رجرج (أشباه رجال) ويتحسرون: وينك يا سالم!

يتذكرون الشهور التي تلت غيابه، إجتماعهم في دار أبيه كل ليله، خروجهم للبحث عنه في عرض البحر، إنتظارهم على الشواطئ عسى أن يطفو الجسد الأشقر هنا أو هنالك، يتذكرون جلوس أُمه على رأس الجرف البحري المواجه للماء، ليل نهار عيونها مصوبة في الأزرق، غناءها الحزين الذي أسال دموع الناس حولها:

يا غزيل ياغزال، لا تروح بلاد شمال، ياخدوك التُرك مني، يعملوا جلدك رباب، ياغزيل يا حبيب، يا عسى اشوفك قريب.

لم يكف سعيهم في البحث عن الغائب إلا بعد تلك الليلة التي شاهدوا فيها كتلة غريبة تطفو على الماء، كان الوقت بين مغيب شمس وإكتمال ليل، نادوا: يا عوشي، يا فرز ربعك، يا سيد الرجال، شوف يا ولدي ما هذه الكتلة السمراء هنالك؟ وسيأتي سيد الرجال، خالعاً جلبابه على الفور، سيشق الماء الساكن كقذيفة مدفع طويلة، يرفس الماء كعادته، فلا تعرف إن كان الذي يسبح أمامك واحداً من البشر أم هو دابة من دواب البحر الهائلة، وحين يصل إلى الكتلة السوداء، ويراها عن قرب، يستدير عائداً للشاطئ، سيلتف حول خصره حبلاً غليظاً يسمونه: **زمال**، ويعود من حيث جاء في

البحر، البحر الذي أكمل هبوط الليل عليه ملاءته السوداء، سيربط الحبل في أوتاد الكتلة السوداء، ويعود سابحاً على ظهره بإتجاه الشاطئ مرة أخرى، والحبل السميك ينفرد وراءه ذراعاً بعد ذراع، سيصل إلى الشاطئ حيث الرجال المتراصون، يقبضون على طرف الحبل بإحكام، ويبدأون في الجذب بكل طاقتهم: يا عون الله القوي، سيساعدهم الموج في دفع الكتلة الغريبة، يشعلون سعف النخيل الجاف ليبصرون ما هذه الداهية، وحين صارت في متناول أيديهم فغروا أفواههم اليابسة من الذهول، قالوا: يا كبد أمك عليك يا سالم. هذا إذن آخر ما تبقى من العلامة، تلك التي صنعها سالم وغادر بها في أعماق البحر، ها قد عادت العلامة يا ناس؟ فأين يا الله راح صاحبها؟

وتواصل الأم الرثاء:

يا طيور البحر روحي، وهاتي عن الغايب خبر.

ولا خبر يأتي عن الأشقر الحالم، فيما واصل الناس عادتهم في عدم الركون إلى رأي واحد، قالوا: مات وشبع موت، قال آخرون: البحر لا يهضم الموتى، ونحن لم نر له أثراً على طول الشاطئ، وحين تفيض بهم الحيرة سيقولون: الله أعلم بالذي جرى، والغايب حجته معاه.

في فترة غياب الأشقر عن المواصي، ذهب أخيه الأوسط للحرب في اليمن، بعد شهور قليلة من ذهابه، جاء رجال غرباء إلى أهله في المواصي، خرج أبيه وأمه للقاء الغرباء الذين سألوا عند وصولهم عن عائلة اللهباني بالاسم، يتحدثون بلهجة رقيقة كأنها معجونة بالماء، يرتدون ملابس أهل المدن الكبيرة، إحتار العجوز أين يُجلسهم في هذا العراء؟ نادى بصوت واهن: هاتي البطانية يا بنت، وهم قالوا: لا يا حاج، شكراً لك، نحن على عجلة من الأمر، وجئنا إليك من القيادة لنخبرك بأن ولدك البطل قد صار شهيداً في اليمن، مبروك يا حاج، لقد نال شرف شهادة وإعلاء راية الوطن، ردد

أحدهم: **ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً**، ومد أحدهم يده للعجوز بظرف أصفر مغلق: تفضل يا حاج، تناول العجوز الظرف الكالح، فيما استدار الرجال وغادروا من حيث جاءوا، سألت الأم بحيرة: ماذا يريدون يا حاج؟ غرق الحاج في صمت مجبول بالحيرة: حقاً ماذا يريدون؟ حتى ماذا قالوا منذ برهه؟ ماذا يقصدون ببطل، وشهيد، وزفت الطين، وراية ايش، ووطن ايش الذي يتحدثون عنه؟

ومبروك على ماذا بالضبط؟ ما هذه الحيرة يا ناس؟ كان الأمر يستأهل أن يجتمع أهل المواصي في بيت اللهداني ليخبروه صراحة: أن الولد قد مات، وتسأل الأم: مات؟ تاني يا موت تعملها في الحزينة؟ وكمان في أخر بلاد الناس؟ وإذن من غَسله وكفنه ودفنه؟ وأين قبرة يا موت؟ وتعفر رأسها بالتراب: أبسط يا سالم، ها قد لحقك أخوك، ومازالت أمك جالسة حية تعد وتعدد، ما الذي جرى للموت؟ هل أُصيب بالعمى؟ سيطلب الناس من العجوز أن يفتح الظرف الأصفر، لعل فيه شيئاً يزيل غموض الفاجعة، سيفتحوه، وسيجد الرجل شهادة بتاريخ وفاة البطل، وخمسون جنيهاً كاملة، سيسأل من حوله: ماذا تعني هذه الورقة؟ وهذه الفلوس؟ ايش أسوى فيها؟ ولماذا جاءوا بها إليّ؟ قالوا: مكافأة صغيرة يا حاج، وباقي المستحقاتِ والمعاش ستصلك بعد حين، الدولة لا تأكل حق أحد، تساءل: أي حق؟ وأي دولة؟ مالي وهذا الكلام؟ ولدي مات، لا أعرف لماذا، ولا كيف، ولا أين، لا أعرف له مزاراً حتى أقف عليه وأرثيه، ويريدون أن يدفعوا لي ثمن موته؟ لا يا خوي، هذه قروش ظالمة، تعويض يعني؟ ماذا يعوض الدم يا ناس؟ ولو دفعت أنا للدولة مائة جنيه، هل تعيد لي ابني؟ ماذا تقولون؟ عوضي على الله، سيرفض النقود وشهادة البطولة، ويرفض حتى الصلاة في مسجد المواصي، بعد أن دفعت الحكومة فيه شيخا لا يفهم مما يقوله شيئاً، قال: أصلي وحدي، فيما

غار الحزن بقلب الأم بعيداً، لازمت الصمت الموغل والبكاء الأسود العميق، حتى كف القلب عن التذكر والذكرى والحياة أيضاً.

سيلحق اللهداني الكبير بها، وبالذي ذهب ليعرف ماذا وراء هذا الماء؟ وبالبطل الشهيد، ما أيسر ما يموت الحزانى، شهقتين من هواء يخرجان، ثم لا يعودان للصدر، يميلون ببساطة آسرة، كأنهم ذاهبون في حلم، يظللهم سعف النخيل، وسيبقى فقط من آل اللهداني، سلمان الصغير، ليأخذ الأرض والعرائش والنخلات، ويقبض مكافأة الشهيد، ويحوز على معاشه العسكري، وليس له عند الناس حين يمر عليهم في الشريط غير التندر والحسرات، وحديثهم الذي لا ينتهي عن الرجال وعن الرجرج، بينما سلمان ذو الشعر الأحمر لا يأبه بشيء مما يقولون، ولا يرد حتى بتعليق صغير.

-٣-

قبل شهور قليلة من عام النكسة، في بدء موسم الفر(السمان) هبط على شريط المواصي رجل غريب، تحاشاه الرجال أولاً كعادتهم مع الغرباء، ورمت النساء بشاشاتهن على رؤوسهن، فيما وقف الصغار يحدقون في الرجل الواقف على مقربة منهم بفضول وصمت، كان يستند بظهره إلى واحد من نخلات الجهل (التي تنبت من زراعة نواة مجهولة) وإبتسامة غامضة لا تفارق شفتيه، قالت البنات: حكومة. أطلن التحديق في الشعر الأصفر الناعم الطويل، في النظارة السوداء، والحذاء اللامع كأنه مدعوك بليمونة بنزهير، يتمنطق بحزام من الجلد كممثل سيما، قالت واحدة منهن: ايش جاب الحزين في بلاد الطين! طال صمت الجميع فلم يجد الرجل بداً من بدء الكلام، كان أول من توقف لسماع الغريب هو: الزين ابن سلامة الشلالي، قال الرجل: هل الصوبة على مكانها القديم؟ الزين رجل مبهوت من الأصل فزاده السؤال ذهولاً: وكمان عارف الصوبة؟ لن يعرفه الزين مرة أخرى، ولن يصدقه حين يقول: أنا سالم اللهداني يا خال. قال الزين: سالم مات زمان، والصوبة على مكانها القديم. صار الحالم يمشي ويتوقف، يحدق في الأركان الأربعة، يتناول من الأرض حبات بلح متساقط، يتجه للماء المالح ويرش وجهه بيديه، لم تبق عريش يمر عليها إلا توقف حيالها، هذه دار الملقوح، عريش الشلالي، زاوية جبريل الشيخ، أبو محمود الحرماني، يرفع يده للناس المحدقين فيه، ويبادلونه الإشارة في عجب كبير، يخاطب نفسه ويسترجع أعماقه:

لم تنس شيئاً يا سالم، لا الأماكن ولا الأسماء، ولا حتى رائحة الدروب، برافو عليك يا ولد، سيصعد الدرب الرملي الصاعد بإتجاه الصوبة القديمة، التي كانت مشتل لغرس بذور الأكاسيا في أكياس بلاستيك صغيرة، يجد العم الحملّد خفيرها القديم، وقد صار لا يقوم من على الأرض، يكركر في جوزة

البوص الصغيرة، يزر على عينيه ليحصر فيهما ما يريد أن يراه، وهو لا يرى غير الظلال، ولن يتعرف حتى على الصوت الذي غار في جوف النسيان، الصوت الذي غدا معجوناً باللطف والكياسة، ثم أين الذاكرة يا خال؟ يحدق سالم في العرائش المنصوبة حيث كان أهله يربضون هناك دائماً، قال: يا عم حماد أنا سالم، ويرد العم حماد بلا مبالاة: سالم مين يا ولدي؟ سالم اللهداني يا عم، يهز الحماد رأسه ويتمتم: والله يا ولدي، الدنيا ما هي ناقصة هبلان. سأل سالم عن أبيه، قال الحماد بإيجاز: مات، سأل عن الأم، قال: ماتت، سأل عن السروري: أخيه الأوسط، فلم يلقى غير الإجابة نفسها: مات.

توقف برهة، ظن بالرجل الخرف، قال ساخراً: وسلمان أيضاً مات يا عم؟ أجابه الحماد: لا، هو هناك في العريش مع زوجته المصرية. توجه سالم بكل جوارحه للبحر، هل كان حزيناً؟ حتى وإن كان الحّماد صادقاً في نشره وفياته، فهل توقع من الأصل أن يعود هكذا فجأة، بعد كل هذه السنوات، ليجدهم مربوطين في حبل الحياة ينتظرونه؟ الموت ياسالم لا ينتظر أحداً، غير أنه شعر بشيء كالجمر يسقط في أعماقه.

-٣-

ما الفاصل حقاً بين الحزن والفرح؟ لماذا يبدو كلاهما يشبة الاخر تماماً في بعض الأحيان؟ هاهم ماتوا جميعاً يا سالم، كأنك عدت فقط لتزور قبورهم، وتشاهد السلمان الصغير.

لماذا عدت من الأصل؟ ألم يكن حلم حياتك أن تعرف ماذا وراء هذا الماء؟ ها أنت قد عرفت، بالله عليك قل لي: ماذا عرفت؟ وحين عرفت ورأيت ما حلمت به طوال عمرك، لماذا عدت؟ ربما ستقول الحنين؟ لكنك غادرت الحنين طواعية مشدوداً لحنين أخر: مجنون أنت أم عاقل؟ أم أن الذهاب والإياب صاروا يا سالم عندك سيان؟ ماتوا؟ هكذا دفعة واحدة! سيقص عليه السلمان كل ما جرى في سنوات الغيبة، رحيل الأهل تباعاً، سيخبره أن الدنيا لا زالت على حالها، سراديب ومواصي، جرفات وصيد سمان، حروب تأتي وتذهب، والناس كما هم يولدون ويموتون، سيلتم عليه أهل المواصي، بالكاد يصدقونه، ينظرون إليه كمعجزة ماتت، ثم عادت للحياة بغته، سينتقل من بيت إلى بيت ضيفاً على أهل الشريط، يلقي كرم الأهل الفطري، الخلان القدامى، البنات اللواتي صرن زوجات وترهلت أجسادهن من الحبل والولادة والكدح، والرأس الأشقر الحالم ما زال يطن بالأسئلة: ما الذي تغير إذن؟ ربما لم يتغير شيئاً سواي، أيلزم للتغيير أن يذهب كل أهل الشريط إلى ما وراء البحر؟

سيسألون عن الحال، والعيال: تزوجت يا سالم؟ ويرد نافياً برأسه: ليس بالضبط ياجماعة، ها كيف يا سالم؟ وسالم يتوجس من الجواب الصريح، ماذا يقول؟ في أول يومين له وسط الأهل والأصحاب لم يغمض له جفن، إستحال عليه النوم، مازالوا ينامون فوق الرمال يارب؟ أين يذهب ليستحم؟ رائحة الأغطية! أين يقضي حاجته؟ على البحر؟ هكذا ؟ كيف، كيف يا

ناس؟ يا خراب البيت يا سالم! لكنها حياتك التي نسيت، ولكنني اليوم لن أستطيع، عُد إذن يا خوي إلى بلاد الخواجات، ويا دار ما دخلك شر، صارت لك حياه هناك، معارف وعمل وإقامة، بل وصارت لك رفيقة! لكن ليس لدي أهل! حتى أهلك ماتوا، عُد يا رجل. حتى وإن عدت يا سالم للحياة الجميلة والراحة والنظافة والنظام، للعمل وللرفيقة، ستظل دائماً وأبداً في توق لا يموت لهذا الرمل البرئ، لهؤلاء الذين لا يتغيرون قيد أنملة، لصناديق البلح الخشبية، لعوشي وهو يرمي قُطّاع الغزل ليلاً في البحر، للزين وهو يهز النخلات ويجمع الرطب، لرائحة شواء السردين على حطب الصاج، في قلب الحضارة البازغة هناك كان يطوف على رأسك وادي الغف فتبكي، في ميادين البراح والحرية الشاسعة ظللت تحن إلى نظرة مسروقة، إلى ردف واحدة من بنات المواصي وهي تملأ جرتها من البئر.

التفاصيل لم تمت يا سالم، لن تموت. كما أن الحلم الذي صادفته هناك غير قابل للتفريط فيه، هذا جنون.

حياتي هناك يا رب ينقصها هذا العذاب الجميل، وحياتي هنا أيضاً ينقصها روعة الحلم الذي رأيت. هكذا، هكذا ينشطر الرجال الحالمون، لقد ذهب سالم إلى الحلم سالماً غير أنه لم يعد كذلك، ظل يهتف بنفسه كأنه يجلدها: ليت أني ما رحلت أبداً، ولا رأيت، أو ليت أني ما عدت أبداً من هناك، يارب ساعدني أن أكون واحداً فقط، واحداً لا غير يا رب، مثل أي واحد من هؤلاء الأنبياء، أو مثل أي واحد من أولئك الكفرة! لكن هذا الجنون!!

تجمة سيتا

-١-

والله صحيح يا ناس، اللي حاكمك عاكمك.

ثم أنهم يهود يا جماعة الخير: مال، ورجال، وقلة دين. يريدون بالتحديد هذه المساحة من الأرض؟ أليست الجزيرة كلها تحت أيديهم وسلطانهم؟ ألم يحلو لهم من أرض سيناء قاطبة إلا هذه الربوة، وهذا الشريط ليقيموا عليها قريتهم المزعومة، تأوى عسكرهم وأوباشهم، سنقول لا، ولن نرحل، العمر واحد والرب واحد، والمكتوب سنراه على أي حال. سنفعل ما يفعله الرجال إن كان يجدي مع هؤلاء الكفرة، ولسوف نرى.

جنوب شريط المواصي تلة من الكثبان الرملية، تعلو عن سطح البحر بأكثر من عشرين متراً، هم قالوا ذلك، تتوسط المسافة بين الطريق الدولي (الأسفلت) وبين شاطئ البحر، من هُناك تستطيع أن ترى الشريط الأسود للأسفلت، والعربات المارة فوقه، وإذا نظرت للإمام يستلقى شريط المواصي بنخيله، وسراديبه تحت قدميك مباشرة، وأمامهم البحر بكامل زرقته وبهاءة الفذ. قال اليهود: ها هنا بالضبط، أمان تام من ناحية البر والبحر، بحثوا عن مدخل قانوني للإستيلاء على المساحة، جاءوا بكبار العائلة يتقدمهم الشيخ سند، جلسوا مع الحاكم اليهودي للمدينة، لان لهم في الحديث وتحدث بمنطق حازم، قال لهم: تلزمنا هذه المساحة من الأرض، ضرورية للأمن بالنسبة لنا، وسندفع الثمن الذي تريدون، قالوا: لا نبيع الأرض يا خواجة، قال: سنأخذها قوة أو عن قناعة، مم تخافون؟ الحكومة المصرية! نحن باقون هنا للأبد، فلا تدعوا الفرصة تفوتكم، نقودكم جاهزة، وإلا فنحن سنأخذها بلا ثمن، هذا حق المنتصر، قالوا له: خذها إذن، ولكننا لن نبيع، ولن نلمس نقودكم كثمن للأرض، أحاطوا المكان بجنودهم وعرباتهم، ووضعوا الأسلاك الشائكة حول الأرض، منعوا الدخول للمكان من كل جوانبه، سريعون يا

أخي في الهدم والبناء، صارت التلة فجأة تعج بمئات الأفراد والمعدات، ولم تمضي شهور قليلة حتى ظهرت الحوائط والجدران، البوابات الضخمة، الطرق التي تلف القرية والعربات المسلحة التي تحرسها ليل نهار، ثم امتد المنع إلى الشريط نفسه، فضربوا الحصار الذي صار شاملاً للبحر والنخيل والسراديب، قالوا: ماذا نفعل؟ يذهبون كل يوم إلى الشريط بنسائهم وأطفالهم ودوابهم، يحاولون الدخول إلى مجرى حياتهم فيتصدى لهم الجنود بالسلاح، يتشابكون، يتبادلون السباب والوعيد، ويعودون بحسرة وغضب. ذات مساء أجمعوا أمرهم، استخرجوا سند ملكيتهم للأرض، والذي كان موثقاً بحكم محكمة يعود تاريخه إلى أكثر من مائة عام، ذهبوا به إلى القدس، سألوا وعرفوا ما يتوجب عليهم القيام به، أقاموا دعوى ببطلان الإستيلاء على أرض مملوكة وموثقة للمواطنين، اختصموا جيش الدفاع اليهودي مباشرة، وصارت حياتهم طريق واحد ولا سواه، بين البلدة وبين المحكمة العسكرية العليا بالقدس، سبع وعشرون جلسة كانت هي مدة الإختصام القانوني بينهما، استغرقت وقتهم ومالهم، حربهم الضروس، استماتهم في الحصول على حق مشروع، ودفع باطل غاشم، لجان للمعاينة، خبراء مساحة، دفوع وشهود، مرافعات ومراوغات، حتى أقفل الباب على جلسة النطق بالحكم، بات أهل الشريط على أمل وحيد بالعودة إلى منابع رزقهم، وبات اليهود على أمل الخروج من المأزق القانوني ولو بمساعدة الشيطان نفسه.

لم يبق لليهود من مخرج سوى الحصول على وثيقة بيع للأرض، تعذر الولوج إلى الكبار من رجال العائلة، بحثوا في الفروع والأذناب البعيدة، وأخيراً وجدوا ضالتهم في رجل لا يُمانع في بيع نفسه قبل الأرض التي لا يعرف عنها شيئاً، وكل الذي كان يربطه بالأرض هو أن جدته لأمه تملك سهماً في الأرض على المشاع، لا يتعدى أمتاراً قليلة، طالع الدرباني رجل فقير وبائس،

غاضب من الحياة والأحياء، عاجز عن الكسب لكنه لما يزل شغوفاً بأحلام الحياة شريطة أن لا تكلفة شيئاً، أخذوه وهيأوا له الأمر، غسلوا رأسة النظيف من الأصل، وعدوه بالثراء والحياة الناعمة، بالأمن والحماية، أعدوا وثيقة البيع، ولم يتبق سوى توقيع طالع الدرباني، كاتب الشيخ سند الحكومة المصرية سراً عن طريق بعض حاملي الرسائل، قال للحكومة: عرضوا علينا أربعة ملايين ليرة مقابل الإنتفاع بالأرض، وأجابت الحكومة: لا، فأوغل الشيخ سند ورفاقة في الرفض والتشبث بمواصلة الدعوى، وفي يوم الجلسة التي سينطق فيها القاضي بالحكم، قدم اليهود وثيقتهم الملتوية، وأحضروا معهم البائع السعيد، نقض سند بالوثائق والشهود والوقائع، ثم طلب من القاضي أن يوجه سؤالاً واحداً للبائع الخائن الذي يجلس في وسط حماية مدججة، طلب منه أن يذكر أمام الحضور حدود ومعالم الأرض التي باعها، وحين وجه القاضي سؤاله للدرباني أرتج ولم يذكر إلا هراء، وإذن حكمت المحكمة بأحقية الشاكين في الدخول والخروج إلى أرضهم، وممارسة الحياة عليها بموجب سندهم الصحيح، أما فيما يتعلق بالمساحة التي تم بناؤها فيجب التعويض عنها فوراً، صاح رجال ونساء المواصي: الله الغني عن مال اليهود، متى ينتهي هذا العذاب يا رب؟ ثم يعودون للحياة التي خبروها، ويحدقون في المعسكر ونسائهم العرايا على الشاطئ، سيربح الدرباني ملايين اليهود، ويشتري السيارات المرسيدس ذات السبعة مقاعد، يتزوج أربعة ثم يستبدلهن بأخريات، منحوه مسدساً وعباءة حمراء، ولقباً قال الناس عنه: لن يدوم، وصار يدعى: الشيخ طالع، امتلأ البطن الفارغ بالفراخ الروكي، وتعلم أن يدُس معلبات البيرة تحت العباءة الحمراء، يقولون له حين يشاهدونه: مال الحرام يا طالع يفور ويغور، يومين ويأتيك الموت يا تارك الصلاة، وهو لا يبالي: حياة وأخرها موت. طلب منه اليهود أن يعيد المال الذي ناله دون وجه حق، قال هازئاً: مال؟ عن أي مال تتحدثون؟ أنتم الذين جئتم إليّ ولم أذهب إليكم، فعلتم ما شئتم وأنا لم

أمانع، وقع يا طالع على الأوراق، وقع طالع، ثم والله لا أقول لكم سوى الحقيقة، لم يبق عندي من المال غير النسوان، خذوهم إن أردتم، وحين كان يقابله أهل المواصي بالسباب والوعيد، كان يبتسم ساخراً: مجانين ورب الكون، الأرض لا تطير، اليوم أو غداً سيرحلون، وأنتم وأرضكم باقون، ثم أن شعره من دقن الخنزير فايدة! يخوفونه بسواد المصير حين تأتى الحكومة، يذكرونه بما صار مع الشيوخ عقب الحربة الأولى: أيام الحربى يا طالع منافيخ وحياة أبوك، واللى أكلته روكى سوف تخراه عياط، ويرد فى بلادة :ليش؟ أليس مال الكفرة حلال للمسلمين؟ ثم ليكن ما يكون.

ستمضى الايام والسنوات، والأرض كما قال طالع: لا تطير، بل طارت إحدى عشر عاماً من الإحتلال، لم تترك تلك السنوات مآثر فوق الأرض غير تلك التي أقاموها فوق التلة وأسموها (نجمة سينا) وإن تركت فى النفوس أشياء وأشياء، فيما ظلت تلك المساحة من شريط المواصى هى الشاهد الوحيد على أنهم كانوا هنا، تركوا المبانى كاملة وصحيحة بعد أن دخلت فى تفاصيل الإتفاق الذى سبق رحيلهم.

وذات صباح مشمس من ابريل أطلقت نساء المواصى حناجرهن بالزغاريد حين شاهدن جنود الأمن المصرى يدخلون المكان ويحيطون به: ايه يادنيا، لن يكف الناس عن الأحلام، والزمن دوار، واحد فقط لم يبد كثير إهتمام بالتغير الذى حدث، هز رأسه العارى وواصل النظر والسير معاً، صامتاً لا يعرف أحداً بالضبط ماذا يجول فى هذا الرأس الذى لايكف عن الإهتزاز، نعم إنه الخال رفاعى أبو الجراير.

عجايب

-١-

عفا الله عما سلف: هكذا استشهد السادات بنص الآية الكريمة فيما يخص الناس الذين رزحوا تحت الإحتلال إحدى عشر عاماً، قال: لا نريد أن نُفسد الفرحة يا أولادىْ، ويظن القدامى من أهل سيناء أن لهم مكاناً متميزاً فى قلب السادات، يقولون: لقد عاش معنا هنا قبل الثورة، زار المدينة مرات، ويعرف الكثير من أهلها، رفع العلم بنفسة على سارية المحافظة، اجتمع بكبار الشيوخ والعواقل ولبى طلباتهم، وما كان سواه يستطيع أن يحاور ويناور اليهود ويخرجهم، قالوا تعقيباً على قرارة بعدم إفساد الفرحة: الحمد لله، إذن لا سجون، ولا محاكمات، غير أن نظر الحكومة الذى يرقب رجل النملة على الأرض كان مشكوكاً فى صحتة هذه المرة، لا تعرف على وجه التحديد هل يتم ذلك عن تعمد أو عن جهل، فتكريماً لأولئك الناس الذين أُطلق عليهم وصف: الصامدون، أعدت الحكومة ذات النظر الحاد مئات من الأوسمة والنياشين والأنواط ليتم توزيعها على كل من أبلى بلاءاً حسناً خلال تلك الحقبة السوداء، حتى ولو كان عملاً صغيراً، لكن الناس في المدينة الصغيرة يعرفون بعضهم البعض عن قرب وثيق، لا أسرار هناك ولا يخزنون، يعرفون القوي، الكبير، الكريم، الصابر، العفيف، الخائب، التعس، وكانوا يظنون أن الحكومة تعرف ما يعرفونه، وإن تعذر عليها المعرفة فعليها بالسؤال، وحين تريد الحكومة أن تعرف فإنها تعرف، وكان من ناتج هذه المعرفة أن ذهبت الأوسمة والأنواط إلى القائم والنائم، الهاجم والناجم، السبع والكلب على سواء! قالوا: سبحان الله في نظر الحكومة، وغدا الناس في هذا الوقت كأسنان مشط الحكومة، وحين يعرفون أنه سيترتب على هذه المنح الكريمة رواتب وإمتيازات، سيبدأون بالدهشة أولاً، ثم الإستغراب المقرون بالسؤال، وعند العجز عن الوصول إلى جواب شاف سيعرفون خيبة الأمل: يعني أحمد زي الحاج أحمد،

يا خسارة، يتساوى الجميع على مائدة الفرحة الوليدة، ويظل سؤال خبيث لا يعرفون الإفصاح عنه: كنا إذن وأكلي الروكي سواء بسواء؟ فاتت علينا إذن مرقة الدجاج، التفاح الأمريكاني الأحمر، الليرات الوفيرة، سجائر التايم البيضاء، رحلات شركة إيجل إلى أشهر المناطق السياحية، عصائر التمبو اللذيذة، لا بأس، كنا نتاجر مع الله، وعلى العموم: عدوك عدو دينك، حتى وإن كانت الحكومة عمياء، وحين يجتمعون في ديوان الشيخ سند بعد صلاة العشاء بجوار المسجد الذي هدمه اليهود، حين باع لهم طالع الأرض وما عليها، سيمر عليهم جمع من الناس، يجلسون لتناول القهوة والراحة من عناء الطريق، تلك الليلة بالكاد يتعرفون على الشيخ طالع الدرباني وسط الزائرين: العباءة الحمراء، قطعة نحاسية لامعة معلقه على صدر الجلباب الرمادي، سيحدق جبريل الشيخ بفضول ودهشه: خير يا طالع؟ ايش اللي على صدرك؟ ويرد طالع: خير يا خوي، هذا نوط الشجاعة يا جبريل، يعني وسام من الدولة، يندفع جبريل ويقترب من طالع حتى تكاد ركبتاه تنغرس في صدر الرجل: بسم الله ماشاء الله، ثم يلتفت للناس المتحلقة في الدائرة حول النار وبكارج القهوة صائحاً: أشهدوا يا ناس أن طالع الدرباني أشجع واحد في أرض المواصي، والله والله والله تلاتة، ما فعله طالع مع اليهود لم يستطع أن يفعله رجل أخر، حتى هذا الجامع المهدوم يشهد بذلك، وأن الحكومة التي أعطت طالع وسام الشجاعة حكومة شجاعة مثله، وعادلة أيضاً، أشهدوا يا ناس، وحسبي الله ونعم الوكيل في الشجاعة والشجعان، في الصامدين والعميان، حسبي الله وبس.

سيقول واحد من الناس لجبريل: أهدا يا رجل ولا تفسد فرحة الناس، سيهدأ جبريل قليلاً، ويجلس ليدس فمه في أذن طالع: كم يسوي هذا الشئ ياطالع؟ ويرد الشجاع الحكومي: إنه ذهب يا جبريل، غالي يا ولد خالتي،

ويواصل جبريل الفحيح: أسمع يا طالع، أنا يلزمني هذا الفص، إن فكرت أن تبيعه، فولد خالتك أولى به، وسرك في بير، ولكن هذا الشئ لا يباع ياجبريل، يصرخ جبريل في أذنه: أسكت، إنه يباع وأبوه يباع، وماذا أقول للدولة؟ لا تقل شيئاً، الدولة لا تسأل يا طالع، لو أنها تسأل ما أعطتك أياه، قل لها ضاع، وهي تعرف إنك شجاع، وربما تعطيك واحداً أخر، فكر يا طالع ورد عليّ، ويجيب طالع: إن شاء الله خير، أرد عليك وربك يسترها، سيجيب جبريل بثقة: لقد كانت مستورة من زمان يا طالع، بس الناس كانت حمير!

سينصرف الزائرون ومعهم الشيخ طالع صاحب الوسام، ولن يجد جبريل بجواره إلا سلوم طبيب المواصي، فيوجه إليه الكلمات: ألا ترغب أنت أيضاً في واحد من تلك الفصوص يا سلوم؟ اسمع نصيحتي، واذهب غداً في الصباح الباكر عسى الله أن يكرمك، ما على الله ولا الحكومة بعيد! يقول السلوم: ولكن يا خوي أنا عندي رأي آخر، يقاطعة جبريل الغاضب: رأي؟ ولماذا لا؟ أولاد الهفية صاروا شجعان وعلى صدورهم فصوص من ذهب، قول، قول رايك يا خوي، هذه الأيام يا سلوم صارت كل الرايات(جمع رأي) زي شخة الجمل، دايماً لورا، وعلى رأي اللي قال:

ضربة السبع نزلت على الأرض رنت، شرايخ شرايخ، يا دة الزمان المخنت، غدت علوق البلد مشايخ.

-٢-

إنها لعجيبة أخرى من عجائب الحكومة، هكذا علقوا على الأمر الصادر بمنع التواجد على الساحل بعد السادسة مساءاً (أخر ضوء) الحكومة تقول ممنوع، وهم يقولون: كيف يعني ممنوع؟ ليش؟ سيقولون لهم: التهريب، الحشيش، أمن الوطن، وسيكون ردهم جاهزاً: أليس في البحر ياحكومة غير الحشيش والأفيون؟ ما الذي يعكر أمن الوطن لو هبطنا للبحر بعد السادسة؟ ولأنه كلام لا يدخل عقل أحد منهم فسيهبطون للبحر متى شاءوا، ستأخذهم قوات الحدود ومراقبة الشاطئ للمساءلة ويخرجون ليعودون ثانية للبحر قائلين: في يوم من الأيام سيغلقون بابك بالضبة والمفتاح، حزين أنت يا بحر، ياما تشوف منهم! فيما علق الخال رفاعي على المسألة: البحر بتاع ربنا بس، وأنا سألت شيخ الجامع: هل جاء في القراءن موضوع الساعة ٦؟ قال لي: لا، خلاص، ما في كلام تاني.

ليلة خميس كانت، هجع الناس في عرائشهم، لم يعكر صفو تلك الليلة غير صراخ طفلة من بنات الجيران: يا عم، يا عم سند، الخالة تمام تريد البهيمة، لماذا يا بنت؟ خالي عوشي يا عم لا يقدر أن يقف على قدميه.

في هبوب الشيخ سند لتحري الأمر قام معه رجال كثيرون كانوا يجلسون في الديوان، وأتى آخرون على جلبة الحركة الواسعة، حتى أن الغنام قد جاء على عجل، وهو الذي يبعد عن المواصي بمسافة سردابين، تساءل الشيخ سند بلهفة: ماذا بك يا ولد؟ غير أنه لم يلق جواباً، نساء متحلقات حول العريش، أطفال لاهون، وعجائز مرتكزات على جبال من الصبر المُر، متربعاً يجلس عوشي وسط العريش، عينان جاحظتان، ورأس كأنه تضاعف في الحجم مرتان فبدا ضخماً وغير مألوف، وكأن الورم قد امتد إلى الوجه فجعل منه ما يشبه الإطار المنفوخ، ماذا تشعر يا خال؟ ولا أحد يجيب، قالت النسوة: لم يشكو

من شيء، جاء قبل الغذاء، تناول أربعة أرغفة، لاكها بزيت الزيتون، وتناولها كلها، نام في ذات المكان الذي يجلس فيه، وصحا كما ترون، لا يصد ولا يرد، حاول الرجال إيقافه على قدميه فلم يستطع، تكاتفوا لرفعة فوق ظهر الدابة، وحين أجلسوه فوق ظهرها لم يثبت على حال، والبهيمة أيضاً تعذر عليها إحتمال الثقل فمادات بقوائمها في الرمل السائب، أحضر الغنام عربة كارو، ورفعوه على محفة قوية من الخشب فوق ظهر الكارو، وذهبوا به إلى مستشفى البلد، قال السلوم: لا فائدة، وطوال الطريق ظلت عيني عوشي مصوبة للماء الأزرق، حتى في ذهولة وصمته كانت روحة تعرف مدار عشقها، في المشفى لم يمكث طويلاً، عادوا به راقداً فوق عربة الكارو، دون حركة ولا حتى نفس، كعادته كان سريعاً، ولا يحب الإنتظار، إذن مات عوشي! ولماذا لا يموت؟ قال الشيخ: البحر يكبر ويصغر، الموج يأتي ويذهب، كل شئ ذاهب، أت، ولا بقاء إلا للباقي.

لكنه مات دون أن يتكلم! ماذا كان يمكن أن يقول؟ هو لم يكن يتكلم كثيراً، كان يحيا وحسب، يحب البحر والسمك والرطب المشقوق، ولا يحب أن يقول لا، ربما زارة الملاك الصعب ودعاه للسفر فخجل أن يقول لا كعادته، فذهب معه إلى حيث يذهب بكل الناس.

لا يشكل الموت عند أهل الشريط مشكلة، هو جزء من نسيج الحياة، عرفوا هذا من كتاب رؤيتهم للأشياء، وهي تجري أمام عيونهم، لكنه الغياب، غياب النادر والجميل، كأنهم يعرفون أيضاً كم الدنيا شحيحه بهذه العطايا، فمن سيلوم تمام وهي تزفر: يا حسرتي عليك يا جبل، كيف أحتال عليك الموت يا عوشي؟ هي التي قالت للغلام فيما بعد: عارفة يا خالتي أن الدنيا لن تموت، وأن اللي راح قليل إن عاد، والله يا وليدي حتى الحلم يتكرر، لكن يا ولدي، ليس كل يوم تلد المهرة حصان.

سيصاب الصبي بالأسى الكبير لأن وجهاً شديد العذوبة سيختفي من مجال الرؤيا، لأن قوة جبارة ووادعة آثرت النوم مبكراً، لأن حضوراً كثيفاً من الجسد والروح والروائح ستطمره الرمال، لأن مهارات نادرة وصغيرة ستزول من مسرح الحياة الصاخب، ولأن الخالة تمام قالت: تعرف يا وليدي، من سيصاب بالحزن على عواشي أكثر منا نحن أهله وأحباؤه؟ البحر، البحر يا وليدي سيبكي من كان يعرف أسراره، هو من كان يقول له قبل أن يعانقه: أصحى يا بحر، عمك جالك، يريد الأمانة، هات ما عندك يا حلو، وكان البحر يعطيه ما يريد، هل شاهدته يا ولدي وهو ينام فوق سرير الماء؟ ينام كما تنام أنت في حضن أمك، ساعة، ساعتين، وهو يهدهده ويغني له، حتى أنه ليصحو على بعد مسيرة يوم من السير على الأرض، هل تعرف، لقد قال لي مرة: لولا الخوف أن تقولوا عوشي مجنون لقلت لكم أن ماء البحر في فمي أعذب من ماء النيل، ويوم قلنا له: البحر غدار يا عوشي، قال: لا، حتى دواب البحر يا أمي تعرفني، كم درفيل دفعني للساحل حين كانت ذراعايّ تمل وتكل من خبط الماء، ويقول: شوفوا يا ناس، إذا سلمنا من غدر الأرض ومن فيها فنحن بخير.

ألم يكن يخاف يا خالة من الموت مثلاً؟ وتقول مندهشة: يخاف! كيف يا ولدي يخاف؟ لا ياخالتي، كان يقول عنه: هو نومه طويلة وبس. يوماً آخر، وتقص على الصبي: حين كان يريد أن يتطهر من جنابة الجماع، يهبط للبحر ليلاً ويعود بسيخ الحديد الطويل معبأ بحبات الحراجل (الكابوريا) تلك التي كان لا يصيد منها سوى الإناث لأن ذكورها فارغة، فيما كان الغلام يُجن من تلك القدرة على التميز بين الذكر والأنثى منها في عتمة الليل؟ ستقول تمام الحزينة وهي تحدق في الماء: باخت يا وليدي، وصار طعمها حامض، وخالتك قاعدة، مش عارفة ايش أسوي؟ وينك يا موت؟

-٣-

يا خال، حكومة دينها ورق، إذا أردت أن تحمل شبكتك الصغيرة وتنزل البحر يلزمك تصريح، إذا أردت أن تقيم ركائزك وتنصب غزلك يلزمك تصريح، إذا رغبت في بيع بلحك أو زيتونك لازم ورق، ما هذا؟ ما ناقص والله يا خال، يوم أن يُهب عليك المزاج إلا أن تذهب إليهم وتأخذ تصريحاً لتركب الحرمة! أم المصائب كما يقول الزين: لو سرت في طريقك في أمان الله وأوقفك شرطي ولم تكن معك الهوية، ها قد دخلنا أخيراً في دفتر أوراق الحكومة، وصارت لنا أرقاماً لا نعرف عددها ولا نعرف كتابتها، وما علينا حين يطلبونها غير أن ندفعها في عيونهم: خد يا باشا. لقد صار ذلك عسيراً على أهل الشريط، هم الذين اعتادوا الحياة شفاهة ولم يقيموا لعالم الورق أهمية، كما أن هذه الأوراق تحتاج إلى مشاوير، لا يعرفون من أين تبدأ وإلى أين تنتهي: حتى عربة الكارو يريدون لها ترخيص وأوراق! هذا أخر الزمن والله.

ابن الزين الحمداني تأهل للزواج، وافقت حُسينة ابنه العلوان على الزواج منه رغم أنه يصغرها سناً، وهي التي كانت تتفاخر بما يخبئة الجلباب الواسع من كنوز: دهب أحمر وغالي لصاحب النصيب، لكنها خافت أن لا يأتي من يستحق الذهب الأحمر فقبلت ولد الزين عريساً على مضض، الداهية الكبرى كما يقول الزين: يريدون ورقاً لإتمام الزواج وأن أدفع نقوداً لهذا الورق! نحن ياسيدي لا نريد أوراق، لكنه ضروري يا زين، ولماذا هو ضروري يا شيخ؟ من أجل شهادات الميلاد، دخول المدارس للأولاد، حفظ الحقوق في الميراث وعند الطلاق وما إلى ذلك، يشهق الزين: فال الله ولا فالك، ميلاد ايش ومدارس ايش وميراث وطلاق؟ مال الحكومة ومال الميراث؟ لكن حسينة أعطت ولد الزين ما يلزم من مال لإتمام الأوراق والزواج، قالت: لن نفسد الطبخة من أجل شوية ملح، وكان فرح ولد الزين أخر السوامر التي قامت في شريط

المواصي بعد أن زحفت المدنية على الشريط وبدأت في إلتهام الكبار من العواقل، وما صاروا يسمونه: عادات بالية، ومنها مثلا هذه السوامر، وظهور طائفة جديدة من البشر وكأنها تُبشر بدين جديد: هذا حلال وهذا حرام، هذا صحيح وذلك بدعة، ارتج على الناس البسطاء فكرهم، وصاروا بين قديم عميق متآصل في الجذور، وبين حياة صار لها شروط من الورق والقانون والعقائد، قالوا:

كأننا كنا كفرة قبل أن يأتي هؤلاء الناس، وحتى الحكومة لم تعد حكومة، فقط سيارات زرقاء بلا حصر، وباشا راح وباشا جاء، وأنت في كل الأحوال غرقان، برئ أو مذنب، لا بد من الدفع، قال الشلال للزين: أصبر يا ولد أخوي ربك يفرجها إن شاء الله، ولكن الزين له رأي آخر: لقد كانت مفروجة يا عم، بس اللي صار صار، وفي تعقيب غريب للزين: كنت فاكر الباشا باشا، لقيت الباشا زلمة.

غير أن الحكومة لن تكتفي بالأوراق والشهادات والغرامات، لقد فتحت عينيها ذات صباح، من فوق الربوة العالية للمواصي، وشاهدت الأزرق اللامع، الحكومة التي تقدر الجمال وترعاه أرادت أن تجعل من المساحة الباقية أمام القرية التي أقامها اليهود وآلت للحكومة بالميراث، قرية واحدة، من الربوة وحتى ساحل البحر، مروراً بالسراديب والعرائش والناس وكل شئ، الأرض أيضاً؟ نعم تريد الأرض التي يمنحها إياها القانون، قانون مين يا باشا؟ هكذا في أخر الأمر، صارت السراديب وشريط المواصي لازمة للحكومة يا زين!

-٤-

بين يوم وليلة صارت المواصي قبلة للزائرين، صارت ساحل الجمال البراق، شاطئ النخيل، صاروا يصورون الساحل من فوق الربوة العالية، الشمس تتوسط الأزرق الغافل، حمرة وردية تتفتت في صحن الماء السماوي، غابة من النخيل الكثيف تلقي بظلالها على شاطئ أصفر ناعم، فردوس صغير في ركن ناء مجهول، لا يقطنه إلا حفنه من البشر، لا يعرفون بالضبط قيمة ما هم فيه.

يهبط الزائرون عبر تلال الكثبان الرملية حتى ساحل الماء، وأهل المواصي لا يكفون عن الترحيب بالقادمين، تعجب الزائرين من حياتهم، يشربون معهم الشاي الناضج على حطب النار ممزوجاً بأوراق النعناع البري أو أعواد المريمية الخضراء، يأكلون معهم من فطائر الصاج الطازجة، يحدقون في ثمار البطيخ الصغير وهم يدسونها في الجمر حتى تنضج تماماً ثم يجعلون منها وجبة مع قليل من الفلفل وحبات البندورة وكثير من زيت الزيتون، يستحمون في البحر النظيف ثم يسألون عن مياه عذبة للشرب والإستحمام، عن مكان لائق يقضون فيه حاجاتهم، أو يبدلون فيه ملابسهم، أو غرف قريبة للنوم، ثم يسألون السؤال الذي فتح الأبواب المغلقة منذ دهور، السؤال الذي لم يلد سوى العذابات الجديدة، والذي كان الشرك الأعظم وابتلع في النهاية كل ما كان جديراً بالحياة لو تُرك وشأنه دون عبث الأحياء بأقدار الله المكتوبة: كم يساوي متر الأرض هنا؟

أيمكن شراء مساحة من الأرض لنقيم عليها شاليهاً؟ سيسأل عبدون: شالولاً كيف؟ ويقولون توضيحاً له: شاليهات ياحاج، أي بيوت صغيرة على البحر، أه فهمت. سيتدفق الناس والزائرون على مكاتب الحكومة، يسألون عن أسعار الشراء والحكومة تجيب بثقة: سنخطط المنطقة بكاملها ثم نطرحها

للبيع كإستثمار سياحي، ويرد أهل المواصي: الحكومة تبيع أراضيها كما تشاء، نحن لا نبيع، ولدنا ها هنا ونحيا كما ترون ونموت ها هنا أيضاً، حتى حين تغادر الحكومة وترحل، وكثيراً ما فعلت ذلك لأسباب كثيرة، نبقى نحن، كم من حكومات جاءت ورحلت، نحن والأرض كما ترون، ها هنا، ها هنا إلى الأبد، والغريب يا جماعة أنهم يقولون أن هذه المحافظة (سيناء) أكبر محافظات الوطن من حيث المساحة، ويقولون أيضاً صادقين هذه المرة أنها في الغالب شاغرة من الناس والحياة والأحياء، شوف حكمة الله البليغة يا وليدي، من كل هذه المساحة الشاغرة من كل شئ، لم ترْ الحكومة غير هذا الشريط من الأرض وهؤلاء الحفنة من الناس لكي تبدأ باكورة نشاطها، وبناء على ذلك الحلم الحكومي جاء رجال المساحة بأدواتهم، وبكرات الأمتار الطويلة معهم، العلامات الحديدية، زوايا القياس، وجاسوا خلال الشريط بلا هدى، وحين طاف بحلوقهم الظمأ، استبد الجوع بالأمعاء الرقيقة، ذهبوا إلى عريش الشيخ سند: يا أهلاً يا مراحب، أجلسهم وقدم لهم الماء والطعام، شربوا فنجانين الشاي، سألهم الشيخ: ماذا تفعلون هنا؟ أخبروه عن مقصدهم، توجهات الحكومة، كظم غيظه بمرارة، أدرك وعورة الأيام القادمة، قال لهم: أنتم ضيوف، أخذتم واجب الضيف، لا تذهبوا يميناً أو يساراً، عودوا من حيث جئتم، ولا ترجعوا مرة أخرى، لست مسئولاً عما يحدث لكم بعد الآن، وقولوا لمن أرسلكم ما قلته لكم: لا أرض هنا لأحد سوانا، وإذا كان لابد من ظلم، فسنكون ظالمين، نحن لسنا أقوى من الدولة لكن عليهم قبل أن يأخذوا الأرض أولاً أن يأخذوا أرواحنا، هل تفهمون؟

غير أنهم لم يفهموا بعد، لأنهم ذهبوا وعادوا مرة أخرى، هذه المرة يا خوى، لم يشربوا الماء العذب، لم يذوقوا طعام، لم يشربوا شاياً بالنعناع، كان الناس قد عرفوا بنوايا رجال المساحة، التفوا بعد الزيارة الأولى حول الشيخ

سند الذي قال للناس آنذاك ما قاله من قبل لرجال المساحة، ثم أوجز الأمر كما يراه: شوفوا يا ناس، زمان جاء رجل ومعه سكين، قال لغريمه: نام حتى أذبحك، جاوبه الغريم: هذا شئ يطرد النعاس، ونحن إن نمنا حلال فينا الذبح، ليس إلا أن تعد رجالك وتنزل للميدان، ومم تخافوا؟ وعلى أي شئ؟ وكل شئ مهدد بالضياع، إن ذهبت دارك اليوم فلا تستحي في المرة التالية أن تخلع لباسك، شبرك هو قبرك، ثم نحن لسنا بعصافير حتى إذا دقت الحكومة أو حتى الجان الأزرق طبله قمنا لنرقص،لا، لا يا جماعة الخير، هذا لا يصير، وعلى ذلك، حين عاد رجال المساحة ثانية إلى الأرض وشاهدهم أهل المواصي، خرجوا لملاقاتهم كمن وجدوا وليمة للغداء، فمنهم من حاز بكرات القياس، ومنهم من ضرب وخمش، آخرون جمعوا أحذية جلدية جميلة، غير أن الخال رفاعي وجد في ركن ناء من السراديب ماكينة واقفة على ثلاث أرجل رقيقة، حملها على حمارته وعاد إلى البلدة، قص الأرجل الخشبية واستخدمها كحطب ووقود للنار، فيما باع الرأس المستدير مقابل جوال صغير من الطحين، قالوا للخال رفاعي: سمعت، الحكومة تريد الأرض يا خال! قال: طيط ياحكومة، توكلوا على الله.

غير أن الأمر صار معضلة للناس وللحكومة على السواء، يقيناً قد مر على هذا الشريط آلاف من البشر منذ مئات السنين، تُرى من ذلك الشيطان الذي إخترع هذا السؤال القاتل: كم يساوي متر الأرض ها هنا؟

وكان الجواب الذي لم يعرف أهل المواصي صياغته (لأنهم لم يعيروا البلاغة أدني إكتراث) هو أن متر الأرض ها هنا كان يساوي، أو على وجه الدقة كان يعني حياتهم.

-٥-

نعم يا قريبي، هذا هو المكان الذي يُسمى آلاي الهجانة، على ركن البلدة الشرقي مواجهاً للساحل، من جهة الشمال تتناثر في المكان عدد من الخيام الكبيرة البيضاء، بعض من بيوت طينية بأسقف من القرميد، والمكان مُحاط بسلك شائك مهترئ لا يمنع من يدخل ولا يعوق من يخرج، في الجهة الجنوبية من المعسكر، تقف جمال الهجانة البيضاء في مرابطها، أغلب عسكر الآلاي من أقاصي الأقليم الجنوبي لمصر، ربما من أسوان أو حتى من السودان، عمائم كبيرة، سراويل واسعة قصيرة، أحذية جلدية تصل إلى الركبة، وجوه سوداء وسمراء بها علامات وخطوط تبدو كأنها حفرت بمسمار، ولكنه غريبة طريفة حين يتحدثون، بأيديهم دائماً كرابيج طويلة، كان كل عملهم هو المرور الدوري على الساحل، إقتفاء الأثر الغريب، حماية الحدود من المهربين، كان بعضهم قُساة، غليظي التعامل مع الناس، هي السلطة دائماً حين تكون في أيدي عمياء، ورغم ذلك كان لهم علاقتهم بأهل البلدة القريبة منهم، خاصة مع النساء والأطفال، أولئك الذين يذهبون لجمع بعر الجمال ليوقدوا به الأفران أو يبادلون العسكر الأرغفة الميري مقابل البيض البلدي، هذه المساحة من الأرض كانت منذ القديم ملكاً خاصاً بالجيش وعسكر الحدود، وبعد عودة الحكومة عاد الجيش لبيته القديم، هذه المرة ليس عسكر الهجانة وجمالهم بل كتائب الشرطة. على مسافة مائتي متر من البحر ينحني الشاطئ هناك ويلتوي كأنه يمد لسانه في اتجاه الشرق، من هنا تبدأ السراديب وتتوالى المواصي الخضراء، ولسبب لا يمكن التعرف عليه، ولا يمكن القبول به إلا من باب الإيمان بأن نظر الحكومة لا يخيب أبداً، قررت الدولة أن تصنع من هذا المنحنى الطبيعي للماء منياءاً بحرياً ملاصقاً للبلدة الصغيرة، في قلب منطقة تعج بالناس والزراعات، سريعاً سيبدأ العمل، تتدفق مئات العربات الثقيلة

محملة بالأحجار الضخمة وتقذفها على الشاطئ البريء، مئات من معدات الرفع العملاقة ترفع الحجارة واحدة وراء الأخرى إلى قلب البحر، عمل مسعور ومحموم، حتى صار في البحر أرصفة طويلة من الحجارة أذهلت الناس وزادت من حيرتهم، عند اندفاع الماء متراجعاً للوراء تاركاً مكانه للحجارة والردم الثقيل، سيعود الماء غاضباً من وراء الأرصفة ويضغط بعنف يليق ببحر على الشاطئ من الناحية الشرقية، سيأكل في غضبه عشر نخلات في البداية ثم عشرون نخلة ثم يتوحش البحر تحت سياط ردمه وقذفه بالحجارة فيغوص في بساتين النخيل بكل طاقته وجبروته، إندفع كالمجنون يذبح ويضرب ويقتلع صفوف النخيل المتراصة صفاً وراء صف، أقوات الناس ورزقهم منذ مئات السنين، حرفتهم ومصدر حياتهم، تعرج الشاطئ وصار كالكهوف الأثرية ، إنتشرت جثث النخيل في الماء وعلى الشاطئ بلا حصر، ضج الناس بالغضب والألم الدفين، ذهبوا جماعات وفرادى لمكاتب الحكومة، جلسوا مع حاكم المدينة الذي أفاض في الشرح لهم بكلمات كبيرة رنانه عن المستقبل الواعد، تصدير الرمال والفحم، منطقة حرة، إستثمار هائل سيعود بالخير والرزق على جميع الأهالي، سأله الزين: ومن سيعود بالنخيل الذي غرق في البحر؟ قال الحاكم: كل نخلة تسقط ستدفع الحكومة لصاحبها خمسين جنيهاً كتعويض، لا ظلم بعد اليوم. سأل الزين ثانية: خمسون جنيهاً كل عام؟ قالوا له: لا يا أخي، اللجان ستقوم بحصر الخسائر، وتقدر التعويض، التعويض الذي بدا كجنين لا يرغب أبداً في الخروج من رحم أمه، ما أصعب ولادات الحكومة! خاصة حين يعرف المرء أن مدة الحمل الرسمية قد تجاوزت الثلاثين عاماً بالتمام والكمال، ولأن الميناء لن يظل أبد العمر ينمو في اتجاه البحر فلقد صار ضرورياً أن يُخصص له مساحة من الأرض تمتد حوالي كيلو مترين كاملين من الناحية الشرقية كحرم للميناء الجديد، حرماً سيأكل في طريقه

نخيل السكّاك وسراديبه، ماصية الغنام الذي أقسم: وحياة عادل (إبنه الوحيد) ورب عادل، لا يقوم بهذا العمل المجنون حتى إبليس نفسه، ومن الأن فصاعداً سيلعب البحر والحكومة معاً، هي ترمي المزيد من الحجارة، وهو يزيد من سرعة نحره للشاطئ ومن عليه.

جلس الناس بجوار نخيلهم المذبوح يفكرون: ماهذا بالضبط؟ رجال الميناء يأكلون النخيل والمشرات والسراديب، ورجال المساحة والسياحة يلتهمون الأرض الفراغ! لماذا لا ينظرون للناس؟ أهذا هو الحب؟ الحب الذي يدفع المحبوب للكفر والصراخ! ايه يا بحر، لقد ولى الزمن الذي كان فيه الناس والبحر ينامون آمنون عرايا تحت مظلة الله الواسعة، ويتساءلون في جزع: هل حقاً ولت الأيام السوداء أم أنها على وشك البداية؟ وبعد يومين من إحتكاك رجال المساحة بأهالي المواصي، إمتلأت ساحة الربوة العالية بالعربات الزرقاء، فيما علق السلوم قائلاً على لون سيارات الشرطة: حتى لونها شين (قبيح) وهبط منها جنود كثيرين، تدفقوا عبر الرمال إلى عرائش المواصي المتناثرة هناك، الباشا الكبير يصدر الأوامر، والجنود تنفذ في صمت أبكم: من هنا إلى هناك، نصف دائرة يا بهايم، تحرك يا غبي، أوامر قالت عنها نسوة وأطفال المواصي أنها لا تخص سوى أصحابها، فيما خرجت النساء والأطفال أمام عرائشهم يحدقون في الزحف الغامض، سألهم الباشا: أين الرجال؟ قالت النسوة: هم في البر والبحر. لقد كُن صادقات، وأعتبر الباشا هذا الجواب نوعاً من السخرية أو التستر، قال وأقسم بشرف أمه: لو كانوا وراء هذا البحر فلسوف أُحضرهم، ماذا تظنون؟ فوضى؟ ضحكت النساء والأطفال وعادوا لمواصلة حياتهم المعتادة، فيما ظل الجنود والباشا يدورون في كثبان الرمل بلا طائل، وفي طريق عودتهم مروا بعريش الشيخ سند، ومرة ثانية تساءل الباشا عن الرجال، قال له الشيخ: اهدأ يا ولدي واسترح، اشرب ودع العسكر يشربون،

ثم ماذا تريد من الرجال؟ قال الباشا: لقد اعتدوا على رجال الدولة أثناء تأدية عملهم الرسمي، هذه جريمة، لا بد من ذهابهم لقسم الشرطة لكي يعرفون أن الحياة تغيرت، وأنه يوجد شئ اسمه القانون، أجابه الشيخ بهدوء: لكن ذلك لم يحدث يا ولدي، لقد جاء رجال غرباء عن المكان، دخلوا على عرائش النساء والعيال، وصاروا يجوسون فيها كأنهم في بيوتهم، حين جاء الرجال غضبوا وطردوهم، هذا كل ما جرى، لكن الباشا نهض واقفاً: الغرباء الذين تتحدث عنهم يا شيخ موظفي الدولة، أجاب الشيخ ممسكا بزمام غضبه: موظفي الدولة هناك، في مكاتبهم، وليس في بيوت الناس، هذا عيب، الناس هنا يُعدونها جريمة أن تدخل على النساء وتريع الطفال، الدولة يا ولدي دولة ، أه، لكن الناس أيضاً ناس، ثم أنت تريدهم للذهاب معك إلى الشرطة؟ أنا أذهب معك يا ولدي،هيا، وحين ارتدى الشيخ ملابسة وذهب مع الباشا، شاهدته النسوة من عرائشهم، وبالطريقة التي درجوا عليها، أخبروا الرجال في أماكن عملهم بالذي تم أثناء الغياب، وفي لحظة وصول الشيخ إلى قسم الشرطة وجد على مقربة من الباب كل رجال المواصي، حتى الخال رفاعي جاء على عجل، تدافعوا للدخول معه إلى داخل القسم، منعهم جنود الحراسة، وهو أشار لهم بالصمت والهدوء، قالوا له: نحن هنا جالسون حتى ترجع، نعود معاً أو نذهب معاً، لا مفر، قال الشيخ للباشا الذي رافقة على الدرج: أهولاء هم الرجال الذين كنت تبحث عنهم؟ رد الباشا بإيجاز: لا أعرف.

كان صادقاً، فهو لا يعرف حقاً، لكن إلى متى سيظل الباشا لا يعرف، تلك الفروق الصغيرة إن لم تدركها العين، ويشعرها القلب فلسوف تلد مرات ومرات من الخلاف والنفور، وتسأل الناس ثانية:

حقاً، لماذا لا يريد الباشا أن يعرف؟

- ٦ -

في غرفة مأمور القسم كرسيين كبيرين يواجهان مكتبه، أدى الضابط تحيته لقائده، وأخبره بأنه لم يجد بتلك الناحية سوى هذا الشيخ الذي تطوع بالحضور معه، لم ينس الضابط أن ينبه السيد المأمور للجمع الغفير من الناس أمام باب القسم، أشار الرجل إليه برأسه علامة على الفهم.

كان الشيخ سند قد ألقى السلام عند دخولة للغرفة ثم رفع عباءته وضمها إليه ثم جلس على واحد من الكرسيين الشاغرين، نظر إليه الضابط بدهشة، ربما لجلوسه دون أن يأذن له أحد بذلك، غير أن الشيخ لم يأبه لتلك النظرة. بدأ السيد المأمور حواره بسؤال الشيخ عن الاسم / العمل / العنوان، وتلك الأسئلة المعتادة، كان الرجل أليفاً ومهذباً، وقدم الشيخ نفسه للرجل بإيجاز فعرف أنه أمام ركن من أركان هذه البلدة.

هل يرضيك يا شيخ الخروج على القانون؟ ضرورة التعاون والامتثال للأمر، كلنا ننفذ أوامر يا شيخ، المصلحة العامة، لكن الناس يا شيخ لم تزل تحت تأثير الفوضى القديمة، لكن إكراماً لحضورك سوف نغلق هذا المحضر على أن يتم التعهد بعدم تكرار الأمر مطلقاً، وعدم التعرض للرجال حين يقومون بالأعمال المسندة إليهم في تلك المنطقة، جميل يا شيخ؟ تساءل المأمور في مودة، لكن الشيخ يتمهل قليلاً، يبدأ حديثة دون مواربة:

شوف يا باشا، سأقول لك الحق، الجميل هو أن تأخذ ما هو لك وأن تُعطي ما عليك، قل لي يا أخي، ما الذي للحكومة هُناك في الشريط المواصي؟ هل زرعت نخلاً؟ هل حفرت سرداباً؟ نحن يا ولدي وُلدنا هُناك، زرعنا وحفرنا، حياتنا في كل شبر من الأرض، لكن أن يأتي إليك فجأة رجال هكذا، بلا احم ولا دستور، ويقولون أنهم موظفي الدولة، يرتعون في بيتك، ويجوسون وسط النساء والعيال، فهذا ما لن يكون أبداً، ولن يقدر أحداً مهما

كان أن يتعهد لك به، الناس بعيدون عن ما يعكر صفو الحكومة، وعليها أيضاً أن لا تُعكر عليهم حياتهم، ثم أنظر يا ولدي المحترم، حين ينادي واحداً من الجنود على أحد من الرجال بسب أُمه أو بلفظ قبيح، الناس هنا يا ولدي لا تعترف بالصبر الذي هو مفتاح الفرج، بل تعرف أنه لا فرق بين زيد وعبيد إلا بالكرامة، هُناك بعض الفروق الصغيرة ولا بد أن تراعي، الصحراء واسعة هنا، الحدود قريبة، الرزق قليل، عادات الناس قديمة، لو تصفع رجلاً يا ولدي دون حق، ربما يسكت الآن لكنه لن ينسى حتى يُعيد الصفعة مرتين أو أكثر، الشر لا يولد إلا الشر، الدولة أب كبير أو أُم حانيه، لكن إن لم يجدوا هذا الأب ولا تلك الأُم، فرأس برأس، بداوة لن تمت. سيقول الباشا للشيخ: هذا قرار حاكم المدينة، إنهم يخططون لبناء قرية رائعة ستعود بالخير على الجميع، ويقول الشيخ: لا، لا يا ولدي، نذهب للحاكم، نذهب حتى لرئيس الدولة، لن نترك هذه الأرض ونذهب لعراء لا نعرفة، الأرض الشاغرة كثيرة، لتخطط الحكومة بعيداً عن منازلنا وأرزاقنا، نذهب لمن تريد يا ولدي حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً، وقبل أن يهم الشيخ بالوقوف يسأل المأمور: أتريد شيئاً أخر يا ولدي؟ سيقول الرجل بحيرة: لا أريد مشكلة، ويجيب الشيخ بأمانة: ونحن أيضاً، يعلم الله، لا نريدها.

الحادثة

- ١ -

وحياة رحمة جدودي، هذا ما حصل. يا رجل قول وغير القول، لكن هذا والله ما حدث.

لم يكن حسن الملاحي، ولا رحيم المطيري، وكل من قُيض له القدر أن يشاهد تلك الحادثة أو الحدث بحاجة إلى كل تلك الإيمانات ليصدقهم الناس فيما شاهدوه جهاراً نهاراً، هم لايعرفون تاريخ ذلك اليوم، ولا في أي يوم كان من أيام الله، فكل التواريخ والأيام لديهم سواء، غير أنه من المحتمل أن يكون في منتصف ربيع ذلك العام، إذ كانت الملابس التي يرتديها الناس عادية، وربما كانت خفيفة، ذلك كل ما يتذكرونه.

كانت الشركة التي أُوكل إليها تنفيذ أعمال الميناء قد صنعت شارعاً طينياً يربط بين الأسفلت وشاطئ البحر، ماراً بشريط المواصي رأسياً، ضُحى ذلك اليوم كانوا متحلقين حول عريش الشيخ سند عند أخر صف من النخيل ناحية الشرق، يفترشون الأرض ومساند الليف الخشنة، جمر الأثل الناضج يحوط ببراد الشاي الأزرق ودلال القهوة، كانوا يحدقون في العربات الكبيرة المحملة بالأحجار الضخمة التي تلقيها على الشاطئ مُحدثة جلبة وصوت إرتطام عنيف، يقيسون الزمن بذكرياتهم البعيدة وما يشاهدونه أمام أُعينهم فتكبر في أعماقهم الحيرة، لكن سيارة سوداء كبيرة تتهادى على الطريق الطيني بمهل وحذر، تتبعها سيارة رمادية أقل فخامة ولمعاناً، لا طبل ولا زمر، لا سلام ولا كلام، ظنوا أنهم مهندسون كبار من الشركة العاملة، ظنوا أُنهم ضيوف من الوجهاء أعجبهم البحر من عند الربوة العالية فواصلوا السير إلى الشاطئ، قالوا: ايش ما يكونوا يا هلا بيهم.

هبط من السيارة السوداء الكبيرة رجلان مهيبان، فيما اندفع ثلاثة رجال على عجل من العربة الثانية وأحاطوا بالرجلين، ساروا على مهل حتى صاروا

على مقربة من مجلس الرجال، ألقي الرجل الفارع الطول عليهم السلام، ردوا عليه التحية وعرفوه، كان حاكم المدينة، قال لهم: تعالوا سلموا على (الريس) وقفوا جميعاً وصافحوا الريس واحداً واحداً، أسرعوا بفرش بطانية فوق الرمال، ودعا الشيخ سند، الريس للجلوس معهم وشرب القهوة، جلس الريس في وسطهم، وتناول قهوتهم النافذة، سألهم عن الأحوال، شكروا الله على كل حال، سأل الريس فجأة حاكم المدينة عن النخل العائم في الماء! أفاض الرجل في الشرح والوصف، تحدث عن النحر، الميناء، وكلام كثير من هذا النوع. هل تريدون شيئاً؟ سألهم الريس، قال الشيخ سند: يا سيادة الحاكم، أنت مسئول عناّ أمام الله، هذا النخل العائم في البحر كان قوتنا، ورزق أولادنا، لو يستمر هذا الحال طويلاً سنموت من الجوع، الآباء والأجداد ونحن من وراءهم حفرنا وزرعنا كي نحيا على هذا الرزق، التفت الريس إلى حاكم المدينة: لازم تشوفوا حل سريع، وواصل الشيخ حديثه: نحن نعرف أن هذا لا يرضيك يا سيادة الأمير (يظنون أن كل حاكم هو أمير بالضرورة، إنه تأثير خُطب الجمعة، وكل أمير عندهم، لابد وأن يكون كابن الخطاب) والشئ الأكيد أنهم فعلوا هذا دون أن يخبروك، قل لهم يا ريس، يا سعادة الحاكم أن هذا حرام، حتى وإن كانوا لا يعرفون، فخطية السكران في رقبة الصاحي، لقد طمأنهم الريس بأن كل شئ سوف يكون على ما يرام، دعاه الشيخ لتناول الغذاء معهم، تعلل بالظروف والأعمال ووعدهم في مرة تالية، لم ينس الشيخ قصة الأرض التي تريدها الحكومة؟ قال للريس: يريدون أن يأخذوا الأرض التي نعيش عليها، يرضيك هذا يا سعادة الحاكم؟ أمر الريس بتشكيل لجنة لمعاينة الأمر، عقب الشيخ موجهاً حديثه لحكم المدينة: أكتب ما يقول الأمير حتى لا تنسى بعد أن تصل إلى الأسفلت، ضحك الريس وقال: لا تخافوا، أنا أتذكر كل شئ، وحين غادر الريس والحاكم المكان على عجل، اجتمع الناس هناك،

تساءلوا عما جرى، ومن يكون أصحاب السيارات الفخمة، قصوا لهم الحكاية، لم يصدقوا، أقسموا لهم بأن ذلك هو ما حدث بالفعل، روى الشيخ لهم ما دار مع الأمير والحاكم قائلاً: أن الأمير سوف يقضي على المشكلة لأنه يخاف الله، القبر ضيق والحساب عسير، لازم يخاف الله، لازم.

ذلك اليوم لم يحدث من قبل في تاريخ المواصي، وعلى الأرجح فسوف تمر أحقاباً وترحل أجيال قبل أن يحدث ثانية، ربما لصعوبة هذا الأمر، أطلقوا على ذلك اليوم: يوم الحادثة.

الشيخ يقول: لا

-١-

بورقة قديمة صفراء، مُحاطة من أركانها الأربعة بشريط صمغ سميك، مدسوسة في كيس خشن من البلاستيك، مكتوبه بالحبر الشيني الأسود الثقيل بحروف نسخ كبيرة، موقعة من أطراف عديدة، وشهود ذوى أسماء غريبة، وخاتم محكمة قديم من العهد الملكي، وأسفل الورقة من الناحية اليسرى ختم لمحكمة القدس العسكرية يفيد بالإطلاع على فحوى المستند. بهذه الورقة الطاعنة في العمر تقدم الشيخ سند لحاكم المدينة، يطلب الموافقة لهم بالبدء في إستصلاح المساحة الباقية لهم بالمواصي، كإستخراج التراخيص، عدم الممانعة في توصيل المرافق الأساسية لها، ماذا تريدون أن تفعلوا بعد ذلك؟ سأل الحاكم، وقال: ليس هكذا الأمر يا شيخ، لابد من تخطيط هندسي، مشروع متكامل الأبعاد، شوارع، مياه، إنارة، موافقة الجهات العليا على التخطيط، ثم من أين ستأتون بنفقات مشروع كهذا؟ بدا الأمر باهظاً وشديد الوعورة، تلك هي حال البدايات دائماً، عاد الشيخ وقص الذي سمع من الحاكم على مسامع أهل الشريط، تعذر على كثير منهم إدراك الأمر من كل جوانبه، فيما نبت الحلم في عقول أكثر تحرراً وقلوب تشتهي المزيد من رغد الحياة.

قدمت كل عائلة من عائلات المواصي السبع، رجلاً منها ليكون برفقة الشيخ ليل نهار، يعاون فيما يُطلب منه، تشاركوا في رأس مال أولي للإنفاق على ولادة الحلم الصعب، وصدق الزين حين قال مرة: حكومة دينها ورق. ملأوا ملفات من الأوراق، رسوم هندسية، إحتفظوا بكل قصاصة ورق، تأشيرة من كل لون وجهة، مقايسات لخطوط المياه، تكلفة محولات الإنارة، تسوية مناسيب التربة، حرم الشاطئ، لجان قانونية لفحص المستندات، معاينة لحدود الأرض، سؤال الجيران، كأنهم كانوا يخوضون حرباً لتحرير الشريط، وكل صباح يزيد حجم الإنفاق فيزيد القلب غوصاً في الإصرار على الوصول، حاكم

المدينة العسكري لابد وأن له جذوراً تمتد إلى فلاح قديم، يشعر بقيمة الأرض عند أصحابها، يتلكأ في الموافقة، ويشترط الكثير من التفاصيل، لكنه لا يمانع من المضي قُدماً، قرابة العام من الحياة وسط الأوراق والأروقة، المكاتب والموظفين، الإنتظار من هنا، والدخول هناك، في أخر الأمر قيل لهم: لم يتبق أمامكم سوى الحصول على موافقة السياحة المركزية بالعاصمة.

حين صنع مهندسو المشروع الصغار (ماكيت) المشروع المجّسم، نظر إليه أهل المواصي وطاشت الضحكات من قلوبهم، كأنهم ينظرون إلى علبة حلوى، فيما ذهب المهندسون للعاصمة ليعرضوا ما تم إنجازه خلال العام، ويحصلون على الموافقة الأخيرة، غير أن المفاجأة كانت أصعب من الإبتلاع، مشروع! من قال لكم؟ من أعطى لكم الإذن؟ موافقة؟ على أي شئ بالضبط؟ قالوا لهم: هذه الأرض تخص الوزارة، تريدها الوزارة، وهي تكملة للقرية بأعلى الربوة، رد الحالمون: إن كان هُناك أخطاء نقوم بتعديلها، نوافق ونرضى بكل ملاحظات السياحة، لكن وكيل السياحة الضخم قال لهم: ملاحظات ايه وهباب ايه؟ كأنكم أتون من عصر حجري، أقول لكم الأرض تلزم الوزارة والأسبوع القادم، اللجنة التي أمر السيد الوزير بتشكيلها ستكون هناك، مع السلامة.

أجاب واحد من الحالمين: ومن أين تأتي السلامة؟ كأن الوزارة ورثت الأرض عن أبيها الوزير، كأنها حاربت اليهود عليها، وخاصمت جيش المحتل، ورسخت فوقها مثلما رسخوا حتى آخر رمق، مال الوزارة يا ناس وعريشة الخالة تمام؟ ومارس الخال رفاعي؟ وسرداب الغنام؟ ونخيل الشايب وأولاده؟

وحين عادوا للأهل المتلهفين في الشريط قصوا عليهم نوادر الوزارة، وجواب الوكيل الفخم، وفي إجتماعهم المسائي بديوان الشيخ سند انتفخوا بالغضب المر، خرجت الكلمات من صدورهم بحرية اليائس، كأنها صادرة عن

أُناس قد حُكم عليهم بالإعدام تواً، ولم يبرحوا حتى أنهي الشيخ الكلام بقوله: قالوا لكم أن الوزارة تريد الأرض؟ ونحن أيضاً نريدها، يا عونة بالله، واللي كاتبه ربنا يصير.

-٢-

لا وحياة أبوك، ما هي بزيارة للمدينة ولا هي مناسبة لإفتتاح مشروع كبير، ولا كل يوم وأنت تشاهد وزيراً يهل عليك، لا يا خال، ثم انظر كيف جاء؟ ليس في سيارات سوداء لامعة كالتي جاء بها الريس من قبل في يوم الحادثة، شوف العُجبة الكبرى يا خوى، يركب طائرة من العاصمة ويهبط منها هو ورفاقه في مطار المدينة القريب من الضواحي، يستقبله حاكم المدينة، الموظفون الكبار، نواب الشعب وكبار العواقل، وزير يا ناس، الرجل طويل فارع، نظيف، يكاد الدم يفط من خدوده، تساءل البعض: ماذا يأكل الرجل؟ قالوا: أكيد لا يتناول الفلفل والمش كل يوم، وقور ولا يبتسم، يرتدي نظارة سوداء كبيرة تغطي الوجه اللامع، وتقيه حرارة الشمس وكآبة مناظر الصحراء.

صافح الرجل مستقبلية في جدية وعجلة، ركب إلى جوار حاكم المدينة في سيارته، وخلفهم تنطلق عشرات السيارات ككلاب الصيد السريعة وراء الصيد الثمين، ياحسرتي على الأمل: قالوا فيما بعد.

أمام تقاطع الشارع الذي يدخل المدينة، سأل سيادته الحاكم: إلى أين سنذهب؟ قال له بأدب جم: إلى المكتب، تأخذ قهوتك وتستريح قليلاً، واجب الضيافة يا معالي الوزير، سيرد بحسم: لا لا، نذهب أولاً للموضوع الذي جئت من أجله، البحر، أه البحر، نجمة سينا، أليس هذا هو اسمها؟ ثم نعود لنشرب القهوة، عندي مواعيد عاجلة، ولا بد أن أعود مبكراً. قلنا وزير يا جماعة الخير! وسيمتثل الحاكم لرغبة معاليه، وتستدير السيارات متجهة للبحر، لن تستغرق المسافة عشر دقائق بين مهبط طائرته ووصوله إلى القرية التي آلت إلى وزارته بعد جلاء المحتل، سيصعد من بوابات القرية متجهاً شمالاً للربوة العالية هناك، يهز رأسه في دهشة، الريح تعبث بالشعر اللامع النظيف،

ربما حرك جمال المنظر في أعماق سيادته روح الفنان! ربما جالت بالرأس المسئول مشروعات وأحلام رجال الأعمال، قال: رائع وجميل، وصار يردد إعجابه أمام جميع الناس.

ما الجديد في رائع وجميل؟ الخال رفاعي يعرف هذا دون الحاجة إلى التصريح كل دقيقة، ولم يستلزم الأمر ركوب طائرة ليعرف كل ما تعرفه أطفال ونساء المواصي، ثم ماذا بعد؟

حول الوزير رجل وامرأة يعرضان عليه مساحة القرية، عدد الشاليهات، التجهيزات... إلخ، يبدوا أنهما المسئولان عن إدارة القرية، القرية المغلقة منذ الإحتلال وحتى يومنا هذا، والرجل الكبير لم يزل يهز رأسه، يحدق في الجمال وروعة البحر في الفضاء السماوي، غير أنه حافظ على الوقار وعدم الإبتسام، مرة واحدة تساءل: ما هذه الأنفاق الطويلة في الأرض؟ أخبروه أنها مخابئ، كان اليهود يعدونها لحالات الطوارئ، عادتهم التي لن تموت وخوفهم الأزلي، طلب أن يرى الموقع الجديد الذي تزمع الوزارة تخطيطة وإضافته إلى القرية، أشار الرجل والمرأة لسيادته بالتقدم للإمام قليلاً، تحرك الموكب الرسمي على الأقدام لبضع عشرات من الخطوات حتى وقفوا على حدود السلك الشائك الذي يحيط بالقرية، ما أن عبروا السلك عبر فتحة واسعة شقوها حتى كان الوضع غير رائع ولا جميل، الشيخ سند يتوسد الأرض متوكئاً على عصاة الحمراء، يحيط به عشرات من أهله وملاك الشريط، وفي إمتداد زاوية البصر حتى الساحل افترش باقي أهل المواصي قاطبة مداخل البحر، تحت سعف الجريد الذي غطاهم من الحر وحيرة الترقب، الشريط يعج بالحركة والزحام، وتعلقت عيون الأهل بالربوة العالية وما يجري فيهما، لقد كانوا ينتظرون واحداً من أمرين: أن يعود إليهم الشيخ بالبشرى، أو يصعدوا إليه جاثمين على الأرض كما فعلوا أول مرة، وعندما بدأ الرجل والمرأة مديري القرية في شرح

الصعوبات التي يلقونها في القرية، تقدم الشيخ سند ناحية الوزير: يا مرحبا، يا أهلاً، شرفت المواصي وأهلها يا بركة! تأفف الرجل الفارع قليلاً، إستدار بكبرياء إلى حاكم المدينة يسألة: مَنْ هؤلاء؟ ولماذا هم متواجدين هنا؟

آه حقاً يا معالي الوزير، مَنْ هؤلاء؟ من أي كوكب جاءوا؟ وكيف تجاسروا على الوقوف في ذات البقعة التي تشرفت بقدومك، أقدار يا معالي الوزير، يفكر الصبي الذي غدا غلاماً: بعض الأسئلة يا رب، وعزتك تستحق البكاء! حتى كدت أشك أنه وزير حقاً. كان هذا أول غيث الزيارة، لكن لماذا يبدو هذا اليوم كما قالت النساء: أطول من المعتاد؟ يتدخل حاكم المدينة، ويقدم لمعالي الوزير: الشيخ سند صاحب الأرض، وكبير أهل المواصي، ويسأل الوزير مندهشاً: صاحب ماذا يا سيادة المحافظ؟ ويرد المحافظ بهدوء: صاحب هذه الأرض التي تقف عليها يا باشا. ازاي يعني صاحبها؟ أعتقد أنه يوجد لبس عند الناس هنا، وإذن أين القانون الذي يعطي الدولة الحق في جميع الأرض الصحراء؟ يريد الشيخ أن يتدخل ويجيب لكن المحافظ يرجوه أن يتمهل، ويتولى هو الشرح لإزالة اللبس الذي يراه الضيف: لكنهم يملكون سنداً موثقاً من محكمة، ويزرعون أشجاراً مثمره ودائمة، هذا يعني أنها أرض غير صحراء، يقاطع الضيف سيل الكلمات في فم المحافظ: ولكنها أرض تلزم الحكومة، لازمة وضرورية للوزارة، إنها المنفعة العامة، ولن يفلح الحاكم في زحزحة السيد الوزير عن تشبثه بفكرته، ولن يفلح ثانية في منع الشيخ سند من بدء حواره مع السيد الكبير الفارع.

قال: الله يهديك يا رجل، حدثني أنا، والله كل من حولك لا يملك أن يعطيك شبراً أو يأخذ منا شبراً، ماذا تريد أنت بالضبط؟ سيميل واحد من النواب الحاضرين على أذن الشيخ: قل له يا باشا وليس (أنت) عارية.

الشيخ لا يسمع ويواصل: قل لي ماذا تريد، وسأقول لك ما لابد لك أن تعرفه، سيبدأ إنفعال الضيف في التسرب، سيزداد الوجه الأحمر حمرة من الغضب: ماذا أريد؟ أنا لا أريد شيئاً، لكن الحكومة تلزمها هذه المساحة من الأرض، ويشير بالأصابع الطويلة اللدنة: من هنا تهبط الطرق عمودية على البحر، وهناك دوائر لعمل فيلات، سياحة علاجية، رحلات شارتر، لا بد من دراسة إنشاء مهبط في القلب، وعلى الشاطئ وضع مختلف، لن يتوقف الشيخ عند كلام الضيف، وسيقول مقاطعاً: الدولة تريدها؟ لا أعرف عن ماذا تتكلم، لكن كما تشاء، خذوها إذن وأعطونا ثمن ما نملكه، سيزيد غضب الباشا: هكذا؟ ندفع ثمناً لشئ هو لنا من الأصل، أين تعلمت هذه الشطارة؟ اسمع: لن ندفع مليماً واحداً، وسنرى، أنتم أم الحكومة؟

الآن هو الوقت يا شيخ، الآن يعود إلى منابعه الأولى، يتحرر من المرور عبر البوابات الرسمية للكلمات والأسماء والألقاب، سيعود كما كان دائماً: سند ابن الفاطم، سند الهجّان، سند الذي يوقن أن العمر واحد والرب واحد، وأنه ما من قوة على الأرض تجبره أن يخضع لباطل، الآن سيعلو صوته العميق، ترتفع عصاه الحمراء في الأفق: نعم سترى، نحن أم الحكومة! بل نحن قبل الحكومة، وبعدها، نحن الذين نبقى دائماً حين تنكسر الحكومة وحتى حين تفوز، نعم سترى، ويعلو صوت معاليه بحنق: أنت مش عارف بتكلم مين؟ ويجيب الشيخ: أه لا أعرف يا خوي، حقاً من تكون؟ سيشير الرجل بأصابعه إلى صدره: أنت تتحدث إلى وزير، عارف يعني ايه وزير؟ سيقول الشيخ: لا، لا أعرف، ولا أريد أن أعرف، وحتى إن كنت كما تقول، فما الذي لك عندي؟ تريد أرضي ولا تريد أن تدفع الثمن؟ لماذا؟ أقول لك، لن تنال منها شبراً، ولا حتى قبر، تريد أن تفرك خشمنا؟ ماعاش من يفعل ذلك ولا كان، هذه هي الأرض أمامك، أرني كيف تخطو عليها خطوة واحدة، هيا

أربي، ويقول الوزير منزعجاً: هذا تهديد؟ وتلتفت حمده بخطابها للمرأة التي التصقت خلف ظهر الوزير: والله لو شفتك على الشاطئ لترجعي من غير لباس. سيطلب المحافظ من الشيخ الهدوء، ولكن الرجل الغاضب لا يهدأ: ألا ترى؟ يقول لمحافظ المدينة، ويعود الشيخ ليفرغ ما في جوفه: هل تعرف أن اليهود لم تقدر أن ترغمنا على مغادرة الأرض، ظننا أنك قادم للتهنئة، لتقدم لنا هدية ثباتنا وإنتظارنا لطلة وجهك الأحمر، لا، لا يا خوي، مطلبك ليس هنا، ولن يكون، فيما مئات من الرجال والنساء والأطفال يلتفون حوله كسوار حول معصم، يتدافعون، يزمجرون، ويشير إليهم: الرجل ضيف ولا يناله أذى حتى بإشارة.

لقد انتهى الأمر، غير أن ما جرى لم ينس الشيخ عاداته، قال للرجل في نهاية الحديث: عد يا رجل من حيث جئت، تغدى أولاً وخذ واجبك، ثم عد، عد وأخبرهم هناك بما رأيت، قل لهم ولا تخجل: **الشيخ يقول لا**.

سيرفض الرجل تناول الغذاء، والشيخ سيتركه وشأنه، فيما يلجأ الوزير لطلقته الأخيرة: سأرفع للرئاسة تقريراً، ويقول الشيخ مؤيداً وساخراً: ارفع يا رجل، ارفع لمن تشاء، ونحن أيضاً سنرفع قلوبنا لله، رئاستنا الذي نعرف، عد يارجل قبل أن يفلت الزمام، الله يسهل عليك، عُد، عُد يارجل!

-٣-

بعد ظهر يوم الزيارة عادوا لعرائشهم، تناولوا الغداء الذي كان مخصصاً للضيف الكبير، شربوا قهوتهم ثم اعتدلوا في مجلسهم يترقبون الخطوة التالية، فكروا بطريقة لشغل الأرض الفارغة، عرائش وأحجار، لكن ذلك لن يمنع التفكير من حيازتها، لا، شرح المهندسون للشيخ خطوات البدء، كان الأمر يستلزم مالاً، ألقي الشيخ بثقل علاقاته مع أصحاب الجرافات، محاجر التربة الطينية، مصانع الطوب والأسمنت، تجار الحديد، أبدى الجميع استعداده للعطاء والصبر، بل قالوا: إن نفدت النقود، نأخذ ما يعادلها أرضاً بعد الإنتهاء من المشروع.

قال الشيخ لأهل المواصي: لن تكف العيون عن التحديق في هذا الفراغ إلا إذا أصبح ذات نهار مدينة كاملة، ذلك صعب لكن مقدور عليه، ستخصص كل عائلة عدد من قطع الأرض للإنفاق على المشروع، والناس تراهن على الحلم، مغامرون قبلوا شراء الفكرة، وتكدس المال بعد بيع عدد من القطع، وصار الأمر على وشك البداية، كانوا يصدقون الشيخ حين يقول: غداً، سعر الوحدة الواحدة من الأرض سيفوق كل ما أنفق عليها، لاتخافوا وتوكلوا على الله، وذات صباح شتوي نديّ هدرت في الكثبان أكثر من أربعون جرافة رمل عملاقة تسوق الرمل من المنطقة الأعلى وتدفعه للوديان المنخفضة، يبدأ العمل فجراً ولا يتوقف إلا لعطل ما، أو للتزود بالوقود، ستندفع عربات النقل الضخمة محملة بالتربة الطينية والزلطية، وتتكوم في صف طويل في شوارع مرسومة على الخرائط، ستلحق بها معدات الفرد والتسوية، أربعون يوماً والرجال يتعاقبون على الآلات، لا نوم ولا راحة، حاكم المدينة كأنه لا يعرف ما يجرى، الزائرون في دهشة من الأمر، والنساء لا تقوم من أمام الأفران وصنع الأرغفة والطعام وبرادات الشاي الضخمة، الشيخ سند

يدور بين الإلهام وفناجين القهوة، المهندسون الصغار يؤسسون مجد بداياتهم، والأرض صارت طولاً وعرضاً كأنها صفحة بيضاء مستوية، إنسالت السيارات والزائرون على الطرق الجديدة حتى البحر، وأقام سند مكان المسجد الذي هدمه اليهود مسجداً آخر، وانهالت تبرعات البلدة لاتمامه، المسجد الذي إكتمل وتمت الصلاة فيه خلال ثلاثة أشهر لا غير، وعندما زار حاكم المدينة المكان أذهله ما جرى على الأرض لكنه أهدى إلى أهل المواصي ما أثار في نفوسهم الحيرة والقلق، قال: إن اللجنة التي أمر الوزير بحضورها لمعاينة المكان واعتماد تخطيطة للوزارة ستكون في الاسبوع القادم بينكم، لقد صار أهل المواصي على مقربة من ولادة الحلم، لكن الحكومة لا تنسى!

سينهل الشيخ سند المزيد من فناجين القهوة، ويغوص في حسابات الزمن قديماً وحديثاً، يفكر وهو يحدق في أجزاء الحلم وهي تكاد تتشكل: خطوة أخرى يا سند، وتقطع عنق الطاووس على حجر، ألا يقول المثل القديم يا سند: إن غرقت، الحقها رجلك (أي اضغط عليها بقدمك لتسارع بإغراقها، فلا فائدة من الانتظار) خلال هذا الاسبوع الباقي لحين وصول اللجنة، سيلحق الشيخ بطول الأرض وعرضها قدمه التي قررت إما أن يُغرقها تماماً أو يجعل من الكابوس مجرد شاهد عاجز على معجزة البسطاء.

توسد منامه في باحة المسجد القريبة وهو يقول: يا رب ساعدنا كي يرى ذلك الغشوم أننا على حق، ثم إني والله لم أعرف أن الله يوماً وقف إلى جانب حكومة!

-٤-

في فجر أول أيام الأسبوع الذي سبق حضور اللجنة أستيقظ أهل المواصي على مئات من عمال الخرسانات المسلحة، يدقون أخشابهم، يقصون الحديد، يحفرون ويضبطون الزوايا، وفي المساء تدور خلاطات الأسمنت المعجون بالرمل والزلط في الحفر التي صنعوها، في نهاية ذلك الاسبوع كانت جميع أساسات الوحدات السكنية قد تم الإنتهاء منها بطول الأرض من الشرق للغرب، ويوم وصلت لجنة المعاينة، واصلوا هم أعمال البناء والردم، حفر الآبار، تشوين المواد، واللجنة تشاهد العمل المجنون بدهشة وارتياب، كانت خرائط اللجنة شاغرة إلا من المساحات والأبعاد، غير أن الأرض التي يقفون فوقها الآن ليست كذلك، رافق اللجنة قوة من بوليس المدينة، شارك هو الآخر في المشاهدة والإستمتاع بساحل البحر وهدوء المكان، ترأس اللجنة وكيل كبير أنيق، أرسل إليه الشيخ سند ليدعوه لتناول الغداء والقهوة، ذهب الرجل إلى الشيخ الذي كان في باحة المسجد يتوسد فراشه ويتكئ على مساند حمراء: تفضل يا أخي، ها هنا على الوسائد، شرب القهوة وأستطاب مذاقها، كان الضيف حائراً ومستغرقاً في الدهشة، سأله الشيخ عن أي عون أو مساعدة يستطيع أن يقدمها؟ ضحك الرجل قائلاً: لا، شكراً يا شيخ، لقد قمتم بأكثر من المطلوب، لا جدوى الآن من الكلام، هذه الخرائط التي معي ربما تخص أرضاً غير هذه الأرض، كان من الممكن أن نصنع من هذا المكان الرائع شيئاً فريداً، لكن أنتم، ويقاطعه الشيخ: نحن لم نأبى يا أخي، قلنا للوزير خذها وأعطنا ما نستحق، هو الذي ركب رأسٍه وقال: لا.

ربما كان يظننا عجزة أو أرامل، قلت له سترى، ها أنت يا أخي ترى، بالله عليك أخبره بما رأيت، وعند قدومك في المرة القادمة، أو حتى قدومه ستجلسون هنا في واحدة من المباني اللائقة، قل إن شاء الله يا أخي، رزق الله

للغلابة، إنها مشيئته، وحين عاد الوكيل إلى حاكم المدينة قال له: لا فائدة الآن، لقد قلبوا الأرض وزرعوها طرقاً وإنشاءات، يستحيل التدخل أو الإزالة بهذا الحجم، سأرفع تقريراً بما رأيت، وافقه الحاكم على الرأي، وهو في قراراته كان راضياً وسعيداً بما قد تم في المواصي، غير أن الوزير لم يعد إلى هناك قط، فيما عاد الوكيل بعد سنوات من تركه للخدمة ليشتري واحدة من تلك الوحدات الفارهة، وفي أماسي العمل الذي لا يتوقف يضحك قلب سند اليابس ويقول: بعون الله لم تغرق، سار بالشوط إلى آخره، تدفقت المياه من بئر المشروع، إمتدت أسلاك الكهرباء، وأضاءت المصابيح عزلة البحر، رنت الهواتف في فضاء السراديب، صارت تتوارى مشرات النساء قليلاً قليلاً، تم دفن نباتات الأرطة أثناء أعمال التسوية تحت جنازير عملاقة، علا صوت المؤذن في المسجد، وعادت رحمات الجمعة الطيبة، تدفق الزائرون والراغبون في الشراء والإقامة، ومن وقت لأخر يتذكرون تفاصيل ما جرى، ويتكئون على كلمة الشيخ للوزير: سوف ترى، وها نحن أيضاً نرى، وما على الله بعيد.

آن لتمام أن تستريح

- ١ -

ما الفاصل الدقيق بين العقل والجنون؟ تحت نخلة جوز الهند العتيقة، وقد تعرّت جذورها بفعل النحر أسندت الخالة تمام ظهرها لتاريخ على وشك السقوط، صارت العينين الذابلتين تُحدق في تماس السماء مع خط زوال الماء، تُقلب بين الكفين اليابستين برتقالة شديدة الصُفرة، كان ذلك العمل كافياً لأن يُعطل الأصابع عن تناول الغليون الذي صار بالياً هو الأخر، والصبي الذي صار غُلاماً لم يزل يحتفظ بمكان ما للخالة العجوز بين ضلوعه، قال لها: من أين لك بالبرتقالة يا خالة؟ قالت بلهفة شائخة: أنتَ جيت؟ تعال، سأخبرك بالقصة كلها، مدت يدها في الهواء وكأنها تجذبه للجلوس أمامها، تناول الذراع المعلقة في الهواء وهبط معها جالساً إلى الأرض، قالت: بعد الفجر مباشرة يا ولدي جاء عوشي من هذه الناحية، حتى بإمكانك أن ترى آثار قدمية على الأرض، أنظر هناك، ألا تراها؟ لا يا عين خالتك لم يكن معه شباك ولا سمك، فقط برتقال، برتقال يافاوي أصفر، جلس معي حتى شروق الشمس، ثم مضى إلى هُناك، لكن أولاد الحساني مجانين وجوعى، أخذوا كل البرتقال يا ولدي، ولم يتركوا لي غير هذه، ليس مهماً، خذ، خذها لك، ويصاب الغلام بالحيرة الأسيانة: ماذا يأخذ؟ وماذا يقول للخالة؟ والعجوز كما تقول العائشة: زهدت في الطعام والشراب، تأتي بالحكايا المخلوطة من عذب ومالح، ليس خرفاً تاماً، مازالت تعرف الأشخاص بأسماءهم، ما زالت تقول أن هذه الحجارة الكبيرة لا تسد حنك البحر، بل تسد أبواب الرزق في وجه العباد، الأبواب التي كان مفتوحة على بحر الكريم، وهي التي تعجبت من قبل من رحيل عوشي فجأة على يد عزرائيل، تنسى الأن ما قالته آنذاك بأن الذي يذهب لا يعود، غير أنها تعيده الآن فجأة، ربما الشوق الطافح، ربما الحلم يطفو حتى من أعماق القبور، لماذا لا نُصدق

أشواقنا؟ لماذا نُنكر أننا بحاجة أحياناً إلى هذا الجنون؟ وحين يقولون جُنت تمام، ذاب المسمار الذي كان يُرتب الأشياء في الرأس، ستعود وترد عليهم بما يعجز كاملي العقل وأصحاب المسامير الشابة أن تجود به، فجأة يمر على الشاطئ طيفاً لرجل يترنح في مشيته وينادي بكلمات غير مفهومة: من صاحب هذا الصوت يا خالتي؟ تسأل الخالة، إنه نمر الشويفي يا خالة، نمر المجنون! ويعود المسمار الذي يرتب الأشياء لرأس تمام، وتقول: كان أزهي شباب عائلته، نوارة بيت الشويفي، لقد أخذوا منه زوجته بحد السيف لأن أخا لها كان قد طلق أخته، فألزمه أهله بفراقها، عادات سودة يا خالتي، ثم رفض رغبة أبيه في تزويجه بأخرى لا يرغب فيها، فقام والده بتوزيع كل الأراضي على أخوته من دونه، وهو أراد أن يحيا خارج مضاربهم فقالوا: خرج عن الطوع، أفردته العائلة وتبرأت منه، لم يحتمل المسكين الجور فصار كما ترى، خذ، خذ هذه البرتقالة وأعطها إياه، ينادي الغلام على نمر فيتوقف له ولا يجفل منه كعادته مع الناس، يمد يده إليه ببرتقالة تمام، الشويفي لا يفكر في طعام الدنيا ولا يشتهي برتقالها، بل يمد يده في جيب جلبابه الممزق، يُخرج منه فطائر مكسورة، حبات تمر، قروش معدنية، يقبض عليها ويدسها في كف الغلام: خذ خذ، ويمضي على البحر مهرولاً، يفكر الغلام: هل الجنون قرين الجود؟ لماذا وحدهم العاقلون هم صانعي الأذى؟ القابضون على خير الله الوفير باستماته، لماذا يارب؟ مادام الجنون رحيماً كريماً حتى هذا الحد، لماذا لا يكون البشر جميعاً بلا عقل؟ والخالة تمام ستأوى إلى فراشها الفقير، وترى أحلاماً كانت حياة في الحقيقة، ثم تصبح لتشاهد حياة ما كانت لتراها حتى في الأحلام!

والغلام لن يرحمه التساؤل: إلى مَنْ ينتمي؟ لحياة تركض في أحلام بعيدة على شفا الزوال من على الأرض ومن حدقتي العين، أم يُصدّقِ ما تقوله الحجارة الصماء وهي تزحف بجنون، تردم جزءاً من البحر والتاريخ معاً؟

-٢-

هل مر جمل الهجانة يا خالتي هذا الصباح؟ تسأل الخالة تمام، ويرد الغلام: لا لم يمر يا خالة، ولن يمر ثانية.

لم يعد هناك هجانة ولا جمال يا تمام، صارت العجوز تتوكأ على عصا قريبة من الأرض، خفت البصر تماماً، تقول للغلام: كأني أرى أشباحاً يا ولدي، وهو يحاول أن يقول ولا يقول: في الحقيقة يا خالة هي فعلا أشباح إذ أن كل ما رأت عيناك من قبل ما عاد له وجود، حتى نخلة جوز الهند، تلك النخلة التي يمكن للمرء أن يتشمم رائحتك فيها قد صار ميلها شديداً بفعل النحر اللعين، صارت رؤية مركب صيد صغير آية من الآيات، ايه يا زمن، راح زمان الجرفات والسردين والسرفيديا وعلى الذين يشتهونها الذهاب إلى السوق، سألت الخالة الولد الذي ما عاد ولداً، هي التي لا تتقدم مع الزمن فيظل الولد لديها ولداً والنخلة نخلة، عوشي يذهب ويجئ، لكن الحال يقول أن أشياءاً كثيرة قد بدأت في الفرار من حياتها، النظر، الذاكرة، الشخوص، الروائح، المذاق: حتى البندورة يا خالتي صارت كأنك تمضغ تبناً، ما الذي جرى؟

لقد جرى الكثير يا خالة، أنت وحدك التي لا تركضين مع الذين يركضون، تبرق الأنوار على طول الساحل، ويعن على بال الغلام أن يمر بين الكراسي المتراصة تحت النخيل، يُحصي مَنْ يعرف من الناس ومَنْ لا يعرف؟ في هذا الزحام الذي يشتهيه أصحاب الكافتيريات ومحلات البحر، غرباء من كل صنف، لم يبق شيئاً على حالة الأول، حتى عيد الحساني جاء ولقح نخلاته وسط الغرباء، لم يفقد قوته ولا مهارته، ربما فقد تركيزه لدقيقة واحدة، استدار على جذع النخلة من أعلى، لم يضبط توازنه لحظة من زمن فهوى على الأرض، أسرعت إليه البنات القديمات: سلامتك يا خال، وهو قال: خلاص، ماعدت أشتهي المواصي، حتى النخل ياجماعة صار غير حنون،

مات عيد وأقاموا العزاء في البلدة، خلت السراديب من عمارها، أبو سلحان ما عاد يقدر أن يسوق قطيعة من الأغنام وسط المحلات وأحواض الزهور والناس النائمة على الأرض عرايا كأنها سمك مسموم، لن يقدر أن يجلس القرفصاء على ركن نخلة يغني من قلب جياش، يحلب العنزات ويهب الحليب لمن يشاء أن يشرب أو يعمل جراراً من المش المالح، وتقول الخالة للغلام: حلم ولا علم يا وليدي؟ والغلام ذاهل من تداخل الزمن الحي في عينيه وذاكرته: أه يا خالتي، هذه صنابير المياه تتدفق، الكهرباء تشعل ليل المواصي، طرق مرصوفة، شاليهات، رجال ونساء وأطفال لا تعرف أسماءهم ولا حكاياتهم، كان حلماً يا خالة وصار علم، لكن الحلم يا تمام داس على وادي الغف، أنهى جرفات البحر، ردم السراديب وشق المواصي، دفن التمايل، ألغى صناديق البلح الخشبية، طمر الليمون تحت قواعد الأسمنت والحديد، فيما الحجارة لا تكف عن الزحف، كأنها تتوالد، الناس فقط، ترحل ولا تنجب غير الظلال! أليس من الجائر يا تمام أن الحلم قد ولد في شيخوخة الحالمين؟ إذ ربما لو كانوا شباباً أصحاء لجاء الوليد فتياً خالياً من العيوب والرزائل، لحافظوا على الروح التي تتسرب من جسد كان أيه للعنفوان، وكما تقولين يا خالة (ابن الشيبة عيبة) فلن يظل الوالد طويلاً ليهب ويمنح ويحمي فكأن الوليد قد ولد يتيماً، إنهم يغادرون واحداً بعد الأخر، تاركين الحلم بين أيدي النصيب لمن وجده حياً دون عناء، لا تاريخ للأطفال، البحر والسماء جمال قديم وصامت، الشيخ سند لما يزل يُلقي بظلاله على المكان، لكن ماذا حين يطير الوتد الأخير؟ ستتكوم الخيمة يا خالة على الأرض، يا للخسارة.

الزين لا يجد التين الأسمر الذي كان قوته ومشتهاه فيصاب بالكآبة والصمت، سالم الحالم يعود فلا يجد حتى الرائحة التي تجذبه من أقاصي الأرض، يغادر كالمجنون مرة أخرى، ويوصي أخاه السلمان: حين يصلك

جثماني ذات يوم، ضعني قرب أُمك يا سلمان، هذا كل ما أريد، وتسأل الخالة ثانية: ليش يا ولدي صارت الدنيا ساكتة، لا حس ولا خبر؟ كيف يا خالة، وليس في الدنيا غير الضجيج، لكنك لا تسمعين، لا تريدين أن تسمعين، وحتى لو سمعت يا خالة فلن تفهمي شيئاً مما يقال الأن، يداعبها الغلام: أأحضر قطرة لعينيك؟ وتشيح برأسها: لا، لا ياولدي، لا قطرة ولا زفت، ماذا سأرى؟ أقول لك الصراحة، لا أريد أن أرى شيئاً أو أحداً، زهقت من الشوف يا ولد، والعم الحماد الذي صار بلا عمل بعد تسوية الأرض التي كانت الصوبة تقام عليها صار يقضي وقته في غناء المواويل والتعجب من حال الأيام، سيقول ذات نهار:

يا جرح كل طبابك ماتوا، وأنت لسة حي، يا جرح اختشي، صفصف عليك الحي.

والوجع الذي كان بعيداً عن أرض المواصي وأهلها صار اليوم يسرح ويمرح كأنه واحد من أهل المكان، هل تصدق أنت أن يقولوا في المشفى للملوح: احترس، عندك سكر، وهو الذي يقسم: والله يا خال ما عندي شئ، لا في البيت ولا في الغيط، والله يا خال ما عندي سكر ولا حتى ملح، هي تهم وخلاص؟

وذات مساء ربيعي دافئ ستهب ريح خفيفة تساعد الماء على الذهاب والمجئ تحت ما تبقى من جذور جوزة الهند العارية، ستميل أكثر واكثر كأنها روح تعاني الخروج من الجسد، ما أصعب طلوع الروح يا ناس!

إنها ليست مائة عام من الزمن وحسب، بل مائة عام من حياة كاملة الأركان، مَنْ زرع وعرف وشاهد ولمس وذهب ونام، أحب وغنى وبكى، من الرائحة واللون والمذاق، الرمل، الشجر، الدواب، ومن الحياة، ويقول الغلام للخالة: تشعرين بالبرد يا خالة؟ تهز رأسها نافية، أُساعدك للدخول في

عريشك؟ نامي قليلاً واستريحي، وتواصل الرفض، وحين مالت شجرة جوز الهند للمرة الأخيرة ساقطة فوق الحجارة والماء، مالت الخالة على جانبها وأغمضت عينيها، قالوا: السيارات قريبة، نذهب بها للطبيب، قال الشيخ سند: لا، دعوها، هي تريد الذهاب إلى أبعد، لقد آن لتمام أن تستريح، كي ترى عوشي حقاً، فيما كان عزاء تمام أخر عزاء شهدته المواصي، حتى جوزة الهند أمر الشيخ سند بسحبها من الماء، وحفر لها حفرة طويلة عميقة، وردمها برمل أخضر نظيف كما لو كانت واحدة من بنات العائلة، كان الشيخ يرى ما يجري ويقول: لقد بدأ الزمن يستكلب.

يا مطرحنا.. لا تطرحنا

بكرة نجيك.. ونزرع فيك

الحبة السمرا.. وعين الديك.

بانوراما الخال

-١-

كان الوقت ظهيرة الخميس، أكاد أخمن كيف جرى الأمر، بعض العادات التى نألفها تصير مع مرور الزمن فى غير حاجة لتفكير مسبق كى نقوم بها، إنها تتآلف مع خلايا الجسد، المخ، وكل ما علينا هو أن نقوم بفعلها فقط بتلقائية التنفس البسيط، هذا ما حدث بالضبط في ظهيرة ذلك الخميس، لا نعرف الوقت تحديداً، لأنه حتى الوقت يمكن التعامل معه والتعرف عليه بذات الطريقة.

الخال رفاعي لا يقرأ جرائد الصباح، ولا يعلق نتيجة حائط، وما من سبب هام يدعوه لأن يسأل إن كان اليوم الأحد أو الأربعاء، ما الفرق؟ كلها أيام ربنا يا خال. لكن هناك الطقوس المرتبطة بأيام بعينها، كيف عرف الخال أن اليوم هو ظهيرة الخميس؟ ربما جذبه الحدس القديم لأن يمتطي حمارته ويفكر أن يذهب إلى هناك كما جرت العادة منذ عشرات السنين، حمارته السوداء الجديدة التي صارت مع الوقت نسخة مطابقة بالتمام للحمارة التي ضاعت في الحربة الأولى، في صمته المألوف سيتناول الساكو (البالطو) الأسود القديم من فوق سقف الفرن الطيني، ومع أن الوقت ليس به برودة لكنه لن يتنازل عن عادة غير مفهومة، ويتجه بالصمت نفسه إلى البايكة (مخزن الحبوب والأعلاف) ليتناول خرج الدابة الملقي هناك ليقذف به فوق ظهر الدابة السوداء، الأن قد يمر على البال سرداب خليل السكاك حيث البطيخ النمس الطويل: فيه بركة يا خال، الشقحة الواحدة تكفي عيلة، هو يحب البطيخ، ولأجل ذلك سينفرج الفم العجوز عن إبتسامة راضية، سيواصل الحوار الأليف مع ذات سابحة في الزمن: ربما تكون عند السكاك عشوة، ليتها تكون عجرات بكر (ثمرة البطيخ قبل نضجها) وأن ينسى السكاك عادته بإضافة عشرون قرن فلفل: نار ياخال، لكن ما باليد حيلة، حتى زيت السكاك يا رفاعي طعمه يبقى في الفم لمدة أسبوع، أه زيت بعلي، لا تروي

شجراته إلا من ماء الله، ثم أن السكاك رجل بركة، ماعونه دائماً منصوب، سيمر في طريق خروجه على جبانة البلدة، سينظر إليها بحياد تام ويواصل السير، ربما يسأل سائل: ألا يتذكر عزيزاً لديه؟ ألا يشعر بالحنين لأم الأولاد؟ ألا ينتفض قليلاً من غموض المصير تحت حجارة القبر؟ لا، لا يا خال، لأن اللي راح راح خلاص، ما في فايدة من الكلام، وعند تقاطع درب الآلاي سيعرج على البحر مباشرة، ليس على ماء الساحل بالضبط، لكن بين النخل وبين الساحل سيمضي، كل ما يخشاه في الطريق: كلاب جنيد الحمراء، لكن إن شاء الله مستورة، تحفظ الذاكرة بدون عناء ترتيب السراديب على طول الدرب وكذلك أصحابها، مراكب الجرفات ومواقعها ورجالها، مسجد الشيخ سند، زاوية المالح، بئر الجغنة، ثم الصعود غرباً والهبوط على قرية السكاك ومسجده.

ظهيرة الخميس نعم، لكن هناك أشياء صغيرة قد حدثت، غير أن أحداً لم يخبر بها الخال رفاعي، الزمن الذي أسرع في الركض لم يراعِ عن إهمال أو قصد أنك لم تزل فوق دابتك السوداء، وأنك عازم على المضي في رحلتك على ذات الدرب التي تعرف، كأن شيئاً لم يحدث أبداً، لم يتبدل فيك شئ، الزمن، الزمن يا خال لم تطل أصابعة السافلة بعد ذاكرتك البيضاء، الزمن في غفلة منك فعل مالا يمكن لك أن تصدقه أو يطوف بخيالك، لكنه فعل وترك لك الخيار، إذهب وشاهد ما جرى بنفسك، أنت لا تصدق الإ عيناك، وأنت ذاهب إلى هناك، لا بأس يا خال أن تفكر في العجرات البكر، والزيت البعلي، وأن يسترها الله من كلاب جنيد، وأين ستقضي ليلتك؟ وعلى من سيكون غداء الجمعة المبروكة؟ فكر، فكر يا خال.

-٢-

ما كل هذه الحجارة؟ وتجد الدابة صعوبة بالغة في تدبر مواقع حوافرها، حفر عميقة وواسعة، رمل معجون بالقار ومخلفات الزيت والسولار، بكرات خشبية ضخمة: ما هذا؟ وصوت متمدن هش: إنت رايح فين ياحاج؟ يُحدق في الصوت وصاحبة: ومن هذا أيضاً؟ يرفع الرأس العاري ببطء وبالعينين السوداوين ينظر بصمت قديم، يمد عنقه للأمام، يقصد أن يقول للرجل: إلى هناك، ويقول له الرجل المتمدن ذو الصوت الهش: ممنوع يا حاج. هو لا يعرف ما الممنوع وما المسموح، يدق الدابة بكعبيه العاريتين في جنبيها لتواصل السير، هي جفلى وخائفة، مترددة وتبدو كالتائهة، يقول لها في سره: مالك يا حزينة؟ كأنك تأتين لأول مرة.

يعود إليه الصوت الغريب: عُد، عُد ياحاج وواصل السير على الطريق العمومي، يعود الحاج، ومن وسط غابة النخيل سيمضي.

هي المرة الأولى في حياته التي يختلط فيها الأمر عليه إلى هذا الحد، بعد بضع خطوات يلقى رجل من الفئة الزائلة، كان يتفيأ ظلال نخلة، عرف الرجل مدي الحيرة التي يقاسيها الخال، بادرة بجواب لن يفهم منه الخال شيئاً: إنها الميناء الجديدة يا خال. هز رأسه وواصل السير، في منتصف الطريق حيث كانت الدابة تتوقف مرتجفة على نباح كلاب جنيد الحاد والصارخ، توقفت الدابة بفعل العادة، أوامر الحدس البعيد، وهو حدق في الأرجاء، غير أن هذه المرة لم يكن هناك شئ بالمرة، لا كلاب ولا جنيد ولا حتى البيت كان له أثر في الناحية؟ كأن صاعقة ضربت المكان ولم تترك وراءها حتى علامة! يرفع حاجبيه الكثيفين، يتلفت يميناً ويساراً، لا شئ، ويواصل السير، سيعبر سرداب الغنام وماصية الرفاعي، عما قليل سيعرف بدوران الدم والذاكرة أنه على ركن الشيخ سند.

ستعود الدابة للقلق حيث صادفها رصيف حجري جديد، وسيقول لنفسه: من هذه الحدبة كان محمد الكفيف يصعد دون دليل إلى سراديب الشيخ سند، ربما رائحة ما كانت تصعد به إلى هناك، عرقه الغزير الذي كان يبلل كل ثيابه وجسده، ربما رائحة الأرغفة الساخنة التي كان فرن الشيخ لا يكف عن إنضاجها للعمال وأهل البيت والزائرين، ربما رائحة الشمام النفاذة، ثم أين شجرة جوزة الهند؟ توقف وحدق في الدائرة من حوله، ماذا أصابك يا خال؟ هل شرد أكثر مما ينبغي فقامت الحقائق الراسخة كالأسياخ في رأسه العاري وعينيه الذاهلتين؟ وما الذي أطاح بكل هذا النخيل في الماء؟ وهؤلاء الناس الذين بلا حصر، من أين جاءوا؟ إنه لا يعرف أحداً منهم، ولا ماذا يفعلون هنا؟ والحريم الجالسة تحت المظلات، عاريات، حتى لا تعتدل الواحدة منهن إذا مر رجل أمامها! ثم، وهذا هو الأهم، من أين يصعد الآن إلى مسجد الشيخ سند؟ وإذا لم يجد الشيخ هُناك، فمن من هؤلاء الغرباء سيخبره بحقيقة هذه المصائب؟ مَنْ من هؤلاء سيعرف أين ذهبت شجرة جوزة الهند؟ وعلى أي شئ تسند تمام الأن ظهرها اليابس؟ وكأنه يقول دون أن يحرك شفتيه: والله حيرة يا رفاعي، لا كانت على البال، ولا على الخاطر!

أه، أخيراً يا خال ستعرف طعم الحيرة، الحيرة التي ولدت فجأة وصارت عنواناً للسراديب، لشريط المواصي، ومن يعرف؟ ربما تصير عنواناً لحياة قادمة، يا حزين يا رفاعي!

-٣-

لم يعد صعود الدابة إلى مسجد الشيخ بالأمر السهل، السلالم الحجرية تمنع الدابة من حفظ توازنها، ابتعد الخال بها قليلاً عن الماء، تراجع إلى خلف الرصيف الحجري ثم نزل من فوق ظهر الدابة، وصار يسحبها إلى أعلى الدرب، كان يريد أن يتراجع من وراء الزحام، الموانع الجديدة، ليصل إلى باحة المسجد من الدرب العلوي، وهو يغادر أخر حجارة الرصيف، التفت للخلف لينظر للدابة التي تمشي على حذر كبير: ما هذا؟ فرك العينين مرة أخرى ليصدق ما شاهدته عيناه في المرة الأولى، أه رجل وامرأة خلف ساتر الحجارة عُراه، لماذا هنا يا ناس؟ ألا توجد لهما عريشة؟ ينظران إليه ولا يتوقفا، هل يذهب إليها ويطلب منهما أن ..... أن ماذا يا رفاعي؟ مالك أنت والناس؟ أنت لا تعرفهم وهم لا يعرفونك، وطوال عمرك لم تأبه لسلوك أحد، على صواب كان أو خطأ، للناس رب يحاسبهم، أنا لا، وعلى رأي المثل يا خوي (كل شاه مُعلقة من عرقوبها)

يواصل الصعود في الكثبان الرملية الصغيرة، خلف الطرق الطينية ووراء كتل الأسمنت والمباني، لا يلقى أحداً ممن يعرف، وفي أعلى الرابية يستقيم الدرب شرقاً وغرباً، ينأى الشاطئ الآن، ينأى العراة والصخب، لا عرائش في الطريق ولا مشرات، ليس سوى رجال يرتدون سراويل صغيرة، يهبطون بها في إتجاه البحر، يا جماعة الخير، ماذا جرى للربع؟ ليس معقولاً أنهم ماتوا جميعاً! بعد قليل يشرف من أعلى على الدكر القديم، الحد الأزلي الذي لا يريد أن يموت كما مات الناس، ظل وحده باقياً، دائما وحده، لا يشكو ولا يتكلم، مثلك ياخال وحدك، دون شكوى ولا كلمات، لكن هذه الحيرة الجديدة عليك؟

في ظلال الدكر الحي يجلس الخال، يتناول خرج الدابة من فوق ظهرها، فارغ هذه المرة، وسيظل فارغاً في قادم الأيام، لن يعطيك أحد من الغرباء شئ، لا أرغفة ساخنة بعد اليوم ولا سردين ولا شمام، أنظر بعينك لتعرف أين السراديب؟ أين جبريل الشيخ؟ الرفاعي الكبير، الغنام، أولاد الحساني، الشايب، بس بس يا رفاعي، تريد أن تحصرهم؟ ليس الأن سوى هذه الحجارة، حجارة في البحر، حجارة في الدروب، حجارة كأنهم يبنون بها قبوراً في السراديب، كم قبراً تحتاج الآن لأهلك؟ قبراً للشايب ولابد أن يكون أكبر القبور، قبر الأب، وقبراً لابنته الفاطم، أسوداً وطويلاً مثلها، واحد للشلالي، عريض يتسع لصدره وبطنه الكبير، وأخر ضخم كسمكة الوحش، لا يدخلة ولا يسكنه إلا عوشي، ابن البحر، لتمام، لسالم، الزين، لحمدة، للبحر، أه للبحر يا رفاعي، لأن هذا الماء الكبير ليس بحراً، البحر شئ آخر، وأنت يارفاعي، ألا تريد واحداً مثلهم؟ أنت لست أقل من جوزة الهند التي دفنها سند بيده، أه يا خوي، ينفض رأسه ويقول: الله يخزيك يا شيطان، ماذا لو تواصل دربك يا رجل وتنام الليلة عند السكاك؟ هل نسيت العشوة؟ لكن من أدراني أن السكاك أيضاً قد لحق بباقي الربع؟ وأنني لن ألقى هناك غير ما وجدته هنا: حجارة. يا مشوار الشوم عليك يا رفاعي! يهدأ قليلاً، الدابة تدور حوله في سكينة، البحر يلمع بزرقة فاتنة، سفن كبيرة على حافته البعيدة، ريح خفيف ونظيف، لا روائح ولا أصوات، النخلات وحدها كانت تتنهد، صمت جميل واسع، ولت الأصوات التي كانت تألفها أذناه، بادت الروائح التي كانت تشده حتى وهو بين قضبان الحربي، كأن حجراً من هذه الحجارة التي يمقتها قد طار واستقر في فمه وأذنيه، لن يتكلم مع أحد، ماذا سيقول؟ وهم أيضاً لن يتوقفوا عنده، ماذا يريد منهم؟ وماذا يريدون منه؟

جمال أخرس بديع يلف المكان والخال، المكان هو المكان، ولكنه أبداً ليس المكان الذي يعرف ويحب، شئ جديد يا خال، أنت لا تعرف اسمه قد أصابك في آخر العمر، أقول لك اسمه؟ اسمة الذي لن تفهمه قط ، وإن كنت ستحياه في باقي أيامك، شئ يسمونه: الإغتراب، ايش يعني؟ يعني أن تكون صاحب بيت وغريب، أن يزداد الزحام حولك ويزداد الفراغ داخلك، كفاية يا وليدي، أريد أن أرجع من حيث جئت، أرجع حالاً وأغلق عليّ بابي، ترجع! لقد فات آوان الرجوع يا خال، حتى وإن رجعت؟ فلن تجد غير ما يدفعك إلى الرحيل، ألم تقل لنا يا خال: اللي راح راح خلاص، ما في فايدة من الكلام، أم أنك صرت تنسى؟

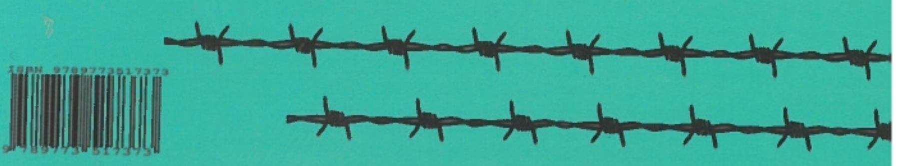
ياليت أنك تنسى، ما أبشع الذاكرة حين تتقدم، ارجع يا رفاعي إن استطعت الرجوع، لكن حتى في رجوعك ستكون وحدك مثلما كنت دائما وحدك، فيما ذلك الزمان، الزمان الذي ربما يساورك الحنين للرجوع إليه قد صار بعيد المنال، خلاص يا خال، أنت قلت هذا، خلاص.

تمت

٢٠٠٨

جرى سؤالهم في المحبس عن التعامل مع العدو؟ شعروا بوجع صارخ من السؤال، أجابوا بحقيقة تبدو كالسخرية: أن العدو تعامل معنا كعدو، وله الحق في ذلك، ألسنا أعداءه بحق الله من كل الوجوه؟ لقد حبسونا في سجونهم، وكالوا لنا الضربات، وقالوا عنا خائنين، غير أننا احتملنا الجور والأذى منهم، حتى جاءت دولتنا، فإذا بنا في السجون مرة أخرى، فهل نحن هنا أعداء أيضاً؟ ما الفرق يا سيدي؟ إذا جاء اليهود صرخوا بنا : تعال يا خمار، روح يا خمار، وإذا جئتم يا باشا صرختم في وجوهنا: تعال يا ابن القحبة، روح يا ابن الشرموطة.

تصميم الغلاف: عمرو حميد



ISBN 9789773517373